الإسلام والحضارة

بقلم
محمد خلف الله احمد



مكتبة الثقافة

مختارات الإذاعة

الإسلام والحضارة

بقلم
محمد خلف الله أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع هذه الأحاديث « الاسلام والحضارة » ، وهى تطرقه من نواح ثلاثة :

الأولى ـ ابراز الخصائص الكبرى للحضارة الاسلامية ، وبيان الدور الذى قامت به فى هدايه الانسانية والسير بها فى معارج الرقى والتقدم .

والثانية ـ تقديم بعض ذخائر المكتبة العربية الاسلامية (فى مختلف ميادين المعرفة من تشريع وسير ، وتاريخ وقصص ، وسياسة واجتماع) الى جمهرة المستمعين .

والثالثه ـ العرض المبسط لنماذج من أعلام الفكر والتأليف الذين يجيئون فى الصفوف الأولى من علماء الحضارة الاسلامية ، والذى تتمثل فيهم وفى أمثالهم حيوية تلك الحضارة وخصب معارفها وجدارتها بالخلود .

والفكرة الرئيسية التى تصدر عنها هذه الأحاديث هى أنه اذا كانت المدنية الحديثة تقوم فى أساسها على العلم ، فان تراث الاسلام وتاريخه وجهود علمائه خلال العصور تشهد شهادة صادقة ان هذا الدين جعل طلب المعرفة ركنا من أركان نظامه ، وأنه لم يفرق فى العلم بين وطن ووطن ، وان ثقافته أضافت الى معارف البشرية جديدا من عبقريتها الدينية والفلسفية والعلمية والأدبية ، وطبعت تطور الانسانية بطابعها عدة قرون . هى تحس الآن ـ وقد جددت شبابها وصقلت عزيمتها ـ أنها قادرة أن تشع على العالم المعاصر أضواء جديدة من تعاليمها ومثلها الخالدة ، وان تأخذ بنصيبها فى اصلاح الاجتماع البشرى وتوفير السعادة والكرامة لجميع بنى الانسان .

الإسلام والحضارة

يمر العالم الاسلامى اليوم بمرحلة بالغة الأهمية فى تاريخ الاسلام ، وصلته بالمجتمع وحضاراته : فالأمم الاسلامية — من ناحية — قد نما وعيها القومى ، فشعرت بوجودها ، واعتزت بتراثها ، وأخذت تجاهد ، لا لتتبوأ مكانها بين الأمم فحسب ، ولكن لتقوم بنصيبها كذلك فى تقدم الحضارة الانسانية عامة ، واقرار مبادىء الاخاء والعـــدالة بين جميع الشعوب • والعالم الغربى — من ناحية أخرى — قد أخذ يعنى بتتبع النهضات الفكرية فى العالم الاسلامى ، ويرقب اتجاهات حركاتها ، ويدرس تأثير الثقافة الاسلامية فى تفكير المسلمين ، وفى تحديد موقفهم من الفلسفات السياسية والاجتماعية الحديثة •

هناك — اذن — فى المرحلة الحاضرة من تاريخ الانسانية تجاوب فى التفكير ، ورغبة متزايدة فى تعرف الآثار العملية لتعاليم الاسلام ، والافادة من هذه التعاليم الحاضرة وتخفيف ماترزح تحته من أطمـاع وشرور ونزعات مادية •

وسأدير حديثى حول الاتجاهات العلميـة التى أخـذ نشـاط العالم الاسلامى اليوم يتبلور فيها ، مشيرا بصفة خاصة الى مظاهر هذه الاتجاهات فى حياتنا المصرية • ان المراقب لليقظة القومية الحاضرة فى مصر يدرك أنها تسير بخطى ثابتة مطردة نحو اقامة حياة جديدة فاضلة على أسس من الخطوط الكبرى التى رسمها النظام الاسلامى ، والتى تتمثل فى الايمان بالله ، والعمل لخيرى الدنيا والآخرة ، والحـكم الصالح الذى يهدف الى سعادة المحكومين ، والتعاون المثمر فى كل ما يعود على المجموع بالخير ، وتوفير حرية العقيدة والفكر والعمل لكل مواطن ، والأخذ بيد الضعيف والعاجز والمحـروم ، والدفاع عن

المقدسات الانسانية من دين ووطن وعرض وكرامة ، واستثمار ماخص الله به الانسانية من ادراك ونطق فى زيادة المعرفة وكشف أسرار الوجود .

هذه الخطوط الكبرى واضحة وضوحا لالبس فيه ، فى نصوص الاسلام قرآنه وحديثه ، وفى العمل الذى جرى عليه الرسول وخلفاؤه الراشدون ، وفى مراحل الازدهار التى تولى فيها أمور المسلمين ولاة عدول ، وفى الكتب والرسائل التى ألفها علماء ومصلحون ممن نفذوا بصفاء جوهرهم الى أسرار الاسلام وأهداف تشريعه ، وفى الحضارات التى قامت على أساس هذه الخطوط كلها أو بعضها .

والنظام الذى ترسمه هذه الخطوط ليس مغرقا فى المثالية ، ولا بعيدا عن واقع الحياة ، ولا متجاهلا لطبائع النفوس ، ولكنه نظام يتخذ من الايمان دعامة للاستقرار ، ومن العقيدة مصدرا للاطمئنان ، ومن المثل العالية مصابيح يهتدى بها السارون فى مجاهل المعيشة ، ويجعل من تفاوت الناس فى مواهبهم وقدراتهم وسيلة لترابطهم وتعاونهم ، ويقيم من الحكام والعلماء حملة لمشاعل العدالة والمعرفة ، ويشتق من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر حافزا على التقدم وباعثا على طلب الكمال ، ويرجع الأديان السماوية كلها الى منبع واحد ، ليقرب بذلك بين أهل الايمان بالله وليجمعهم على كلمة سواء .

وهذا النظام ــ كما هو ظاهر من خطوطه ومن تاريخه ــ لا يمكن فرضه على الناس فرضا ، ولا بناؤه على أسس القوة والجبروت ، ولا محاولة التمكين له من طريق العنف والتعصب ، ولكن الطريق الطبيعى لبنائه هو التربية والتثقيف ، والحكمة والموعظة الحسنة ، والقدوة الصالحة ، وتعرف أدواء النفوس ، ومراعاة أحوال العمران ، ورسم سياسة بعيدة

المدى لتحسين أحوال المسلمين ، ورفع مستواهم الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ، ودعم وحدتهم ، واعلاء كلمتهم فى المعترك الدولى .

هذه المبادىء التى نقررها هنا مشتقة من صميم التوجيهات الاسلامية، وهى لهذا جديرة بالدرس والتأمل والاتباع ، ويمكن أن نتخذ منها مقاييس للحكم على الخطوات التى خطتها أو ستخطوها مصر وشقيقاتها من الامم الاسلامية فى سبيل قيام الاسلام بدوره فى بناء المجتمع ونهضة الحضارة .

لقد وجهت مصر شطرا من عنايتها فى جهودها التحريرية الى السمو بكرامة المواطنين جميعا ، وتقريب المسافات بين غنيهم وفقيرهم ، حتى يكون الجميع سواء فى حق الحياة ، وحتى تتوثق الرابطة بينهم ، فلا ينزلق الغنى بثرائه الى السيطرة والتجبر ، و لايندفع الفقير بحرمانه الى النقمة والكراهية . ومن المعلوم أن هذه نقطة أساسية فى برنامج الاسلام فقد حض على البذل ، ووضع الثروة فى مكانها من عدد الحياة ، وحذر من كنز الاموال ، وسن للاغنياء غير سبيل الى الايثار والاعطاء ، وأبعد عن الفقراء شعور الحرمان ومرارة العوز ، وجهد الخلفاء فى تعهد هذه الناحية فى الرعية ، حتى لقد قال أحدهم : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين » .

هذه الروح أصيلة فى النظام الاسلامى ، وان كان المسلمون قد أهملوها أو جهلوها فى مراحل من تاريخهم ، ومن الحكمة ابرازها فى منهج الاحياء الاسلامى فى هذا العصر الذى اضطربت قيمه ، وتعقدت أموره وكثرت مثيرات النزاع فيه . واذا فهمت فلسفة الاسلام فى هذه الناحية على حقيقتها أمكن أن يجد فيها المجتمع الحديث حلا لمشكلة من أعقد مشكلاته ، ومن الخير أن تشرح المبادىء الاسلامية فى هذا شرحا مستقلا ، غير متأثر بنزعة حديثة تنحرف به الى هذه أو تلك من الفلسفات المتناظرة .

والمظهر الثاني الذى عنيت نهضة مصر الحديثة برعايته والقيام عليه هو حث الافراد والجماعات على العمل والنظام والمواظبة وعدم الاهمال فى الواجبات أو التباطؤ فى تنفيذها ، ولا سيما اذا كانت واجبات تتصل بالصالح المشترك وتؤثر فى سير الحياة العامة • وهذه ناحية مرعية الجانب فى المجتمع الغربى ، وقد أولاها الاسلام اهتماما فى فلسفته ونظامه : فحض على العمل ، والمزيد من الاتقان ، وحذر من التراخى والتواكل واضاعة العمر فيما لايفيد ، والقعود عن طلب الرزق ، وانتظار أن تمطر السماء ذهبا أو فضة • ومما له دلالته فى هذا أحد الادعية المأثورة التى يروى أن الرسول كان يكررها صباحا ومساء ، وفيه يقول : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال »

والمجتمع الاسلامى اليوم فى حاجة كبيرة الى العناية بهذه الناحية ، فقد توالت عليه أزمان من الجهل والتأخر ، أورثته البطء فى الحركة ، والاهمال فى الواجبات ، والتراخى فى أداء المسئوليات ، واضاعة الوقت فى الشواغل الفارغة ، والتسويف فى الاعمال حتى يتراكم بعضها على بعض • والسرعة التى تنفذ بها الآن بعض المشروعات الاصلاحية الكبرى فى مصر تعطى مثالا مما يمكن ان يكون عليه المجتمع اذا حرص كل فرد فيه على أن يعمل ويخلص فى العمل ، ويسهر على الثغر الذى يكلف رعايته ، ويقوم بدوره فى وقته المحدد له ، كما يقوم أفراد الفريق الموسيقى بأدوارهم فى دقة وتجانس •

والظاهرة الثالثة فى نشاط النهضة المصرية تخصيصها جزءا من برنامجها لتنسيق الجهود الاسلامية العامة من طريق التواصل الشخصى والزيارات المتبادلة بين القادة والرؤساء ، وعن طريق ابراز فكرة المؤتمر الاسلامى السنوى العام فى صورة عملية ، تحكم أواصر الود بين المسلمين ، وتهيىء لهم فرص التشاور والتعاون المثمر فى كل عام ،

وتجعل منهم قوة يخطب ودها ويعمل حسابها فى العلاقات الدولية .
وقد أصبح المؤتمر منذ هذا العام حقيقة واقعة : فابتدأت سلسلة نشاطه ، وأخذت أداته التنفيذية فى العمل ، واتجه العالم الاسلامى كله الى مصر التي احتضنت فكرة المؤتمر ، يبارك جهودها ، ويمدها بآرائه ومقترحاته .

ومن الواضح أن هذا المؤتمر ثمرة من ثمار فريضة الحج ـ أحد أركان الاسلام الخمسة ـ وفى قيامه تحقيق لتوجيه الله تعالى فى قوله : « ليشهدوا منافع لهم » . واذا كان العالم الحديث قد أخذ نفسه بنظام المؤتمرات المختلفة من سياسية وعلمية واقتصادية وغيرها ، فان المؤتمر الاسلامى السنوى العام سيكون من طراز فريد ، لجمعه بين الدين والدنيا ، وتهيئته الفرص لمئات الالوف من المؤتمرين فى كل عام ، يفدون من جميع أقطار الارض ، ويجتمعون فى صعيد واحد مقدس ، ويتبادلون الاخبار والمعلومات ، ويتناجون بمختلف الآمال والآلام وينسقون سياستهم تجاه الاهداف والغايات المشتركة .

هذه النماذج الثلاثة من النشاط مظاهر مدنية فى طابعها ، دينية فى روحها ومراميها ، تقوم على الفطرة السليمة ، والنظر الراجح ، والتطبيق المثمر لنتائج الاجتماع الحديث ، والترجمة الصحيحة لاسرار الشريعة السمحة . وهى جزء من البرنامج الواسع الذى تحاول النهضة الاسلامية ان تسير عليه فى تحقيق الرسالة الحضارية للاسلام .

يحاول الباحثون المعاصرون أن يعطوا للالفاظ مدلولاتها المحددة ، ليساعدوا بذلك على دقة التفكير ، ووضوح التفاهم بين الناس • ومن الالفاظ التى يعرضون لها ألفاظ (الثقافة) و (المدنية) و (الحضارة) فهي الفاظ كثيرة الدوران على الالسنة ، وفي الكتابات المختلفـــة عن الاجتماع البشري ، وما يحدث فيه من رقي أو تأخر ، ومن تأثير وتأثر •

ونحن – في المرحلة الحاضرة من حياتنا في مصر وفي سائر الامم الاسلامية ، نعنى كثيرا بهذه الموضوعات ، فنكتب الكتب والمقالات في شأنها ، ونذيع الاحاديث عنها ، ونحضر المؤتمرات المحلية أو الدولية لدراستها ، ومن الخير أن تكون مدلولاتها واضحة فى أذهاننا •

ولعل معظم الباحثين اليوم يتفقون على أن كلمة (ثقافة) عندنا تقابل مايسميه الغربيون « **Culture** » فبين اللفظين شبه فى أصل المعنى ، اذ كلتاهما تعنى التهذيب والتربية والتنمية ، ومن هنا أصبح المدلول العام لكل من هاتين الكلمتين – العربية والافرنجية – الجانب الروحى المعنوى من حياة الفرد أو الجماعة : فثقافة مصر – مثلا – تتمثل فى دينها وعاداتها وتقاليدها وفنونها وآدابها وفلسفتها ومذاهبها فى الحياة ، وقل مثل ذلك حين نتكلم عن الثقافة الاسلاميـــــة ، أو الثقافة الغربية •

أما كلمة (مدنية) فمن السهل أن نصطلح على أن نعنى بها جانب العلم والمادة والاختراع من حياة الامم : فالمدنية الغربية – مثلا يقصدبها ذلك الرقى العلمى والمادى الذى حققته أوربا وأمريكا فى العصر الحديث والذى قام على أساس الطريقة والنظريات العلمية ، وما أدت اليه من

اختراع ، ومن تسخير لقوى الطبيعة ، وتحكم فى عناصرها ، وماكان لذلك من أثر فى المعيشة وأساليبها ، وفى السلم والحرب ، والصناعة والزراعة وما اليها •

ويجرى بعض الكتاب على استعمال كلمة (حضارة) فى هذا المعنى أيضا فهى عندهم مرادفة فى استعمال لكلمة مدنية ، وكلتاهما على هذا تقابل الكلمة الغربية **Civilization**

ولكننا ــ هنا ــ سنستعمل كلمة (حضارة) فى المعنى الواسع الذى يشمل (الثقافة والمدنية) ، أى يشمل ظواهر الحياة الروحية والحياة المادية كلتيهما • فاذا تحدثنا عن حضارة الاسلام ــ مثلا ــ قصدنا بها ماوضعه الاسلام من أسس للعقيدة والاخلاق ونظم الحياة الفردية والجماعية وما أنتجته البيئات الاسلامية من أدب وفن وفلسفة ، وماوصل اليه علماء تلك البيئات من نظريات ، وما أبدعوه من مخترعات • واذا تحدثنا عن الحضارة الانجليزية فى القرن التاسع عشر ــ مثلا ــ عنينا بها كل تلك المقومات فى حياة الانجليز فى ذلك القرن •

ومن المشاهد ان الغربيين يعنون عناية كبيرة بتاريخهم الحضارى ويدرسونه فى مدارسهم وفى جامعاتهم ، وهم يعتبرون دراسة تاريخ حضارتهم ركنا أصيلا فى دراسة أدبهم ولغتهم وعلومهم • ونحاول نحن فى نهضتنا الحديثة أن نسايرهم فى هذا ، وأن نعنى بابراز المقومات الكبرى والمعالم الرئيسية لحضارتنا الاسلامية ، حتى يكون شبابنا على علم بها وذكر لها • ولكننا لم ننتج بعد كتبا صالحة فى هذا التاريخ الحضارى يقرؤها الشباب المتعلم ، ويثقف بها الجمهور • صحيح أننا ألفنا فى الأدب والفن والفلسفة والتاريخ والعقلية الاسلامية ، وكتبنا بعض رسائل فى جوانب من العلم ، ولكن جهودنا فى هذا أشبه بالجداول المنفصلة لم تؤلف بعد نهرا جاريا ، فهى لاتزال جزئية ينقصها الروح العام الذى يكون من كل هذه الفروع كلا حيا مترابطا هو تاريخ الحضارة الاسلامية •

ولا شك أن الوقت قد حان للعناية بهذه الناحية في مناهج التربية الاسلامية في المرحلة الثانوية وفي الدراسات العالية • ومن الخطأ أن يظن أن العناية بهذه الناحية تهم طائفة واحدة من الباحثين والمفكرين ـ وهم الذين يدرسون الادب والفن والفلسفة الاسلامية مثلا ـ فان رجال العلوم في طبهم وهندستهم وطبيعتهم وكيمائهم مطالبون أن يصلوا ما انقطع من سلسلة الجهود العلمية الاسلامية ، وأن يضعوا أمام طالب العلم تاريخا كاملا محققا للفرع الذى يدرسه : فلست أفهم أن يتخرج طالب مصرى فى كلية للعلوم ـ مثلا ـ دون أن يدرس تاريخ الجهود الاسلامية فى علوم الحيوان والنبات والطبيعة والكيمياء والرياضة ، ودون أن يضع هذه الجهود فى مكانها من تطور العلم فى تاريخ البشرية، ودون أن يتعرف بعض شخصياتها الخالدة كالجاحظ والدميرى وابن البيطار وجابر وابن الهيتم وغيرهم • وقل مثل ذلك فى طالب الطب وطالب الهندسة والعمارة وغيرهما من طلاب المعرفة •

ومن الانصاف أن نشير هنا الى نماذج من بعض جهود علمائنا المحدثين فى سد هذا النقص : آلاول ماصنعه الدكتور طه حسين حين دعى منذ سنوات للمحاضرة بكلية الطب بالقصر العينى ، فقد جعل موضوع محاضرته ـ على ما أذكر ـ مناظرات الطبيب البغدادى ابن بطلان مع معاصره الفيلسوف المصرى ابن رضوان ، وكلاهما عاش فى القرن الخامس الهجرى • والثانى الدكتور محمد كامل حسين المدير السابق لجامعة عين شمس فقد حضرت له منذ عشر سنوات محاضرة فى كلية العلوم بالاسكندرية موضوعها جهود العرب فى علم الكيمياء ، والثالث الاستاذ نظيف المدير السابق لجامعة عين شمس فقد توفر على دراسة نظريات العالم الرياضى والطبيعى المشهور « ابن الهيتم » الذى عاش معظم حياته العلمية فى مصر ، وتوفى بالقاهرة سنة ٤٣٠هـ • ولاشك أن هنالك جهودا أخرى فى هذا الاتجاه لغير هؤلاء من رجال الفكر المعاصرين •

ان شبابنا المثقف في حاجة الى استكمال المعارف التى لابد منها فى تكوين شخصيته ووعيه : فليس أضر على هذا الشباب من أن ينشأ غافلا عن كثير من مقومات حضارته ، وعن مكان تلك الحضارة من تاريخ الانسانية • انه فى حاجة الى أن يلم بالحالة التى وصلت اليها الحضارات القديمة قبيل الاسلام فى فارس والهند والامبراطورية الرومانية ومصر والمغرب ، والى أن يعرف الاسس والتوجيهات الكبرى التى وضعها الاسلام لرفع الانسانية الى المستوى اللائق بها ، والى أن يعرف كيف انتشر الاسلام فى تلك الممالك فى مرحلة قصيرة من الزمان ، وماذا كان موقفه من أهل العقائد الاخرى ، وعنايته بهم فى البلاد التى دانت لسلطانه ، وكيف كان حرصه على أن يفيد ثقافاتهم ، ويؤلف من تلك الثقافات تراثا انسانيا عاما يتسع لجهود المفكرين والباحثين من مختلف البيئات والأجناس • ولعل مثلا واحدا هنا يكفى فى الدلالة على حرص الاسلام على ذخائر الثقافة : يذكر التاريخ أن الخليفة المأمون حين هادن صاحب « قبرس » أرسل اليه يطلب خزائن كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد أبدا ، فأرسلت اليه ، وانه صالح صاحب الروم على أن يدفع اليه ماعنده من كتب القدماء ، وأرسل بعوثا من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ مالا يتأتى لملك الروم اخراجه من الكتب ، فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة ــ فوق ماحمل اليه من الشرق والغرب ــ وجعل « سهل بن هارون » الكاتب المشهور خازنا لها •

والشباب محتاج أن يعرف كيف أثر الاسلام فى حضارات الامم الاخرى ، وكيف تأثرت بها حضارته ، ثم ماذا أضاف اليها من جهود مفكريه ، وكيف كانت حضارته عاملا كبير الاثر فى حركة الاحياء وفي نهضة أوربا الحديثة • هو محتاج الى هذا كله ليصحح فكرته عن الاسلام وحضارته : فلم يكن الاسلام مجرد ثقافة روحية ، ولم تنحصر حضارته فى الادب والفن والفلسفة والتصوف ، ولم يكن التعصب

وضيق الافق من خصائصه ، ولا كانت حضارته تراث جنس واحـــد أو أمة خاصة بين الأمم . لقد أنشأ الاسلام حضارة واسعة غنية، فيها الروح والمادة ، وفيها المعرفة والعمل ، وفيها الأدب والعلم ، اتسـع صدرها لكل نافع من ذخائر الحضارات القديمة، وطبعت تطور الانسانية بطابعها عدة قرون ، ثم تلقى الغرب عنها مبادىء النهضة في العصـور الوسطى ، وأخضع نفسه لمؤثراتها ، واعترف علماؤه بهذا الأثر ، وكتبوا فيه الرسائل والكتب .

هذه الحقائق التى نسوقها هنا فى صلة الاسلام بالحضارة يمـكن استثمارها عمليا ، بأن نجعل من الدراسات الأصيلة في تعليمنـا الثانوى درسا للحضارة الاسلامية بكل عناصرها ومقوماتها ، وبأن ننشىء كرســيا أو أكثر فى جامعاتنـا لتـاريخ العــلوم ، وبأن يوجه بعض علمائنا جهودهم لاحياء التراث العلمى الاسلامى ، كمايفعل زملاؤهم فى ميادين الأدب والفلسفة ، وبأن تؤمن الكليات العلميـة عندنا بضرورة تعريب مناهجها ، واصطناع اللغة العربية اداة للبحث والتدريس فيها . هذه النقطة الأخيرة تثير شيئا من النقاش والجدل ، فان بعض علمائنا فى ميادين الطبيعة والكيمياء والاحياء وغيرها لايزالون يرون من الأوفق أن تدرس هذه المواد فى جامعاتنا بلغة أجنبية ـ كالانجليزية ـ مثلا ـ معللين هذا بأن المصطلحات والمراجع والبحوث فى هـــذه الميادين فى الوقت الحاضر موفورة فى اللغات الاجنبية ، وبأن محاولة تدريس هذه المواد باللغة العربية يحتاج الى مجهود جبار فى تعريب المصطلحات وفي تأليف الكتب بالعربية ، وبأن البحث الذى يقوم به عالم مصرى وينشره بالعربية لايجد طريقه فى سهولة الى البيئـات العلمية الغربية .

هذا كله صحيح ، ولكنه للحياة الانسانية الراقية قيمتها التى لا تستقيم بدونها ، ومن بين هذه القيم أن تستكمل الامة مقوماتها

الثقافية ، وأن يكون لها كيانها الفكرى ، وأن تصل حاضرها بتراثها الماضى ، وفى كل هذا تلعب اللغة القومية الدور الاكبر • وقد نجحت مصر فى مستهل نهضتها فى القرن التاسع عشر فى تذليل هذه الناحية كما نجحت الحضارة الاسلامية فيها كذلك فى العصر العباسى ،فنشطت حركة الترجمة فى العصرين ، وزودت الثقافة القومية بزاد خصب من ثمار الحضارات الاجنبية • ولعل هذا يفسر حكمة الاسلام فى عنايته باللغة العربية ، ونشره اياها في كل مكان تلى فيه كتـــابه وانتشرت مبادئه ، واتخاذه منها أداة قوية من أدوات الترابط والتعاونوالوحدة بين الامم الاسلامية •

يمر الغرب الآن بمرحلة جديدة ، من عنايته بدراسة الاســـلام وحضارته ، وهى مرحلة ينبغى لنا أن نتعرفها ونتبين اتجـــاهاتها ومراتبها •

وقد سبق هذه المرحلة مرحلتان أخريان :

أما الاولى فهى تلك الحقبة من التاريخ ، التى تبدأ من القرن الثامن الميلادى ، وتستمر حتى النهضة الاوربية الحديثة فى القرن الخامس عشر • وفيها احتك الاسلام بالغرب سياسيا وحربيا ، وأسس مراكز لحضارته في جنوب أوربا وغربها الجنوبى ، ووقف منها موقف المعلم، يلقنها حضارة خصبة الجوانب ، كثيرة الروافد ، امتزج فيهـا تراثه العربى بتراث الفرس والهند واليونان وغيرهم من الامم التى دانت لسلطانه • وكان موقف أوربا فى ذلك الدور أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية في أوائل نهضتنا الحديثة ، فقد نبغ فيهم مترجمون نقلواجوانب من التراث الاسلامى الى لغاتهم ، وأسماءبعضهم مشهورة في تاريخ الثقافة الغربية •

ثم تجىء المرحلة الثانية منذ أوائل النهضة الاوربية الى القرن الحاضر : وفيها احتلت دراسة الفلاسفة الاسلاميين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان ، وظهر أثر الفكر الاسلامى فى بعض الفلاسفة الغربيين ، مثل « ديكارت » ، وترجمت بعض روائع الآداب الشرقية مثل « ألف ليلة وليلة » الذى ترجم الى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات ، واتجهت العناية الى دراسة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبدأت تظهر الكتب

الاوربية عن الاسلام وتاريخه ، والترجمات المختلفة للقرآن ، وأسست الجمعية الأسيوية فى انجلترا وفى فرنسا فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وأخذ العلماء الاوربيون ينقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها • والحق أن كثيرا من كتب المراجع التى نعتمد عليها اليوم فى دراساتنا العربية والشرقية انما يرجع الفضـــل فى ظهورها وتيســـير الانتفاع منهـــا الى أولئك العلماء من الانجـــليز والفرنسيين والالمان والايطاليين وغيرهم •

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ابتدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لاولئكم المستشرقين ، يعرضون فيها ماوصلوا اليـــه فى البحوث الكلاسيكية الاسلامية والعربية والشرقية ، ويعقد بعضهم أواصر الصلات مع بعض ، ومع البارزين من العلماء الشرقيين •

وكان لمصر ولا يزال جولات موفقة فى تلك المؤتمـــرات : ففى المؤتمر الذى انعقد فى جنيفا سنة ١٨٩٤ قدم شوقى ملحمته الخالدة •

همت الفلك واحتواها الماء وحداها بمن تقـــل الرجاء

وقبل ذلك فى المؤتمر الذى عقد فى اســـتوكهلم سنة ١٨٨٩ قـــدم عبد الله باشا فكرى بحثا علميا عن تحقيق قصيدة حسان بن ثابت فى فتح مكة ، وتحليلها وشرحها • وقد حضر هذا المؤتمر الشيخ حمزة فتح الله بلباسه الشرقى والى هذا يشير زميله حفنى ناصف فى رثائه اياه سنة ١٩١٨ فيقول :

كم فى فينا واستوكهلم صوره مصورو القوم عن بعد وعن كثب
وكم أحاط بنا خلق يســـائلنا ـ من كل مرتقب فى اثر مرتقبـ
مليـــك أى بلاد ذا ؟ فقلت لهم: هذا الامام مليك العـــلم والادب

وفى الحلقات الحديثة من هذه المؤتمرات برزت جهود العلماء المصريين والشرقيين فى مختلف فروع الاستشراق ، وأصبحت لهم مكانتهم فى أوساط المستشرقين وفيما تقوم به من مشروعات علمية • وقد أتيح لى

مع مجموعة من الزملاء المصريين أن نشهد حلقتين من هذه المؤتمرات : احداهما المؤتمر الحادى والعشرون فى باريس سنة ١٩٤٨ ، والاخرى المؤتمر الثالث والعشرون فى كمبردج بانجلترا فى صيف العام الحالى •

أما المرحلة الثالثة ــ وهى التى نشهد مظاهرها الآن ــ فهى مرحلة العناية بالاسلام فى أوضاعه واتجاهاته الحديثة : فلم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هى الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين ، ولمختلف الجمعيات والمعاهد وأقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الامريكية والاوربية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الامم الاسلامية فى نهضاتها الحديثة ، والى ماينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية ، والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية الاصيلة فى تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة ، وماذا بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق أو الاختلاف فى النزعات والوان التفكير ، وما مدى كل واحدة فى التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية المعقدة ــ وعلى الأخص فى التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وأساليب الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها تلك الشعوب فى التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفكر العلمى الحديث •

هذه الموضوعات التى أذكرها هنا تكاد تكون صورة طبق الاصل من أعمال مؤتمر الثقافة الاسلامية الذى نظمته جامعة برنستون ومكتبة مجلس الشيوخ الامريكى ، فى صيف العام الماضى ، ودعيت فيمن دعى اليه من الاساتذة المسلمين والامريكيين ، وشاركت فى بحوثه ومناقشاته ، وتبين لى كما تبين لزملائى أن الامم الاسلامية تتفق كلها فى الاعتزاز بقواعد دينها وتراث حضارتها ، ولكنها تفترق فى موقفها من بعض المعضلات التى يثيرها الاجتماع ونظم الحياة فى الدولة الحديثة ، وتفترق كذلك فى أساليب فهمها لاسرار التشريع ودوراته مع المصالح العامة •

وقد وضح فى ذلك المؤتمر أن مصر ومجموعة البلاد العربية تمثل الوسط الذهبى فى تفكير الامم الاسلامية ، وأن مصر ـ بحكم نهضتها الثقافية والتحريرية ، وبحكم مركزها فى الدراسات الاسلامية جديرة أن تأخذ دور الموجه فى التفكير ، بل ان هذا أصبح واجبا عليها بعد أن حقق الله أمنيتها فى الجلاء ورد اليها حقها فى الحرية ، وتوج كفاحها على يد أبطال ثورتها ، فأ صبح فى استطاعتها أن توجه كثـــيرا من نشاطها نحو اقامة نظام الحياة على الاسس الكبرى التى وضعهـــا الاسلام ، والتى تحقق للانسانية مثل العدالة والمساواة والـــكرامة والاخاء .

قلت ان الموضوعات التى ذكرتها هنا صورة من أعمـــال مؤتمر الثقافة الاسلامية فى برنستون ، وقد صادفناها مرارا فى مؤتمرات أخرى في زياراتنا لانحاء الولايات المتحدة وجامعاتها ، فقـــد حضرنا ندوة فى معهد هوفر بجامعة ستانفورد عـــرضت فيها بعض هـــذه الموضوعات على بساط المناقشة ، وحضرنا فى « منيسوتا » مؤتمرا على نطاق أوسع اشترك فيه طائفة من أساتذة البلادالاسلامية وشبابها الذين يطلبون العلم هناك . وكنا أينما حللنا فى جمعية أو منتدى وتحدثنا عن نهضتنا الحاضرة فى مصر ، وعن مقدار ماحققته بلادنا من الرقى الفكرى والاجتماعى ، طلبت الينا القوم أن نزيدهم بيـــانا عن فلسفتنا الحديثة ، وعن استجابة ديننا لتطورات الحياة وأساليبها ،وعن أثر الدين فى تفكير شبابنا وتوجيههم فى أمور معاشهم ومعادهم ،بل ان هذه الرغبة نفسها كانت تجيئنا أحيانا من طريق بعض الطوائف الدينية الغربية . وقد وصلتنا ـ ونحن هناك ـ دعوة لزيارة معهـــد الدراسات الاسلامية فى كندا ، ولم نتمكن من قبولها ، ولكنناأطلعنا على برنامج هذا المعهد ودراساته ، فاذا هو قد رسم لنفســـه نظاما لبحث أحوال الشرق الاسلامى الحديث ، وسيشغل بهذا المشروع مدة

خمس سنوات ، ومنذ أشهر جاء مديره الى مصر لدعوة أستاذ مصرى للتدريس فى المعهد ٠

والظاهر أن عناية أمريكا وأوربا بالاسلام قد أخذت فى السنوات الاخيرة شكلا جديدا ، نتيجة لشعور الغربيين بأن العالم ينقسم الآن الى معسكرين : أحدهما دينى ، والآخر لادينى ، وأن واجب أهـــل الديانات السماوية أن يقفوا متكاتفين فى وجه الالحاد والمادية ٠

ومن مظاهر هذا الشعور ذلك الاجتماع الذىعقد فى لبنانفى أبريل الماضى بدعوة من جماعة أصدقاء الشرق الاوسط ، وحضره بعض زعماء الفكر من المسلمين والمسيحيين ، وحاولوا أن يتعـــــرفوا نواحى الاشتراك فى المعتقدات والتعاليم بين الديانتين الكبيرتين ، وأنيبرزوا معالم النظام الذى وضعه الدين لحياة انسانية فاضلة تقوم على الايمان بالله والتمسك بالمثل والقيم الروحية العليا ٠

وقد كان مما لفت الانظار فى مؤتمر المستشرقين بانجلترا فى صيف العام الحالى انحراف وفد احدى دول شرق أوربا عن تقاليد المؤتمرات العلمية ، بعرض أفلام للدعاية المذهبية ، وتوزيع أوراق مطبوعـــة يهاجم فيها الاسلام ، وتحرف فيها سيرة رسوله وقد احتج المصريون لدى لجنة المؤتمر على هذا الانحراف المعيب ، وطلبوا اتخاذ الاجراء لمنعه ولو أنه كان عملا علميا لفندوه فى محاضراتهم وبحوثهم ولأظهروا زيف مقدماته ونتائجه ، ولكنه كان من نوع الدعاية المضللة التى تقوم بها المادية ضد الاديان جميعا ٠

وبعد فهذه صـــورة موقف الغرب نحو الاســـلام ٠ ومن واجب المسلمين أن يدرسوها ويفهموها ، وأن يأخذ علماؤهم زمام الامـــور بيدهم ، فقد انقضت المرحلة التى كنا نقف فيها من المستشرقين موقف

المقلد ، وقد تهيأت لنا سبل البحث والتحقيق التى كانت مسالكها وعرة علينا قبل النهضة . وطبائع الاشياء تقضى أن يكون علماء المسلمين أعرف بأسرار دينهم ومراميه ، وأقدر على تفسيره وتطبيقه، وأعلم بما يحقق رسالته فى حضارة الشرق والغرب .

من حق مؤسس الحضارة الاسلامية علينا ـ وقد أظلنا عيد مولده ـ أن نحييه تحية الوفاء والعرفان بالجميل ، وأن نتخـــذ من ذكريات عيده موسما لصفو العزائم ، ورياضة النفوس ، والرجوع الى حظيرة الخير ، والبعد عن أسباب الفتن ، والتعلق بأهداب الحق ، والتمكين لمبادىء المحبة والسلام ، فتلك كلها مثل أحبها النبى العربى محمد بن عبد الله ، وحققها فى حياته وسلوكه ، ووجه اليهـــا فى مأثور سنته ، وتلقى فيها عن ربه كتابا سيظل على الدهر نبراســـا يضىء للسارى معالم الطريق .

ولسنا نعلم ـ فيما درسنا من تاريخ عباقرة الانســانية ـ مؤسس دعوة جمع نظامه بين خيرى الدنيا والآخرة ، ووفق بين مطالب الروح والمادة ، وسوى فى الكرامة بين الابيض والاسود ، وحقق التعاطف والتعاون بين الغنى والفقير ، وبنى العقيدةعلىأساس الحرية والاختيار، وحض على عمارة الكون واستثمار خيراته ، وهيأ للنفس الانســانية مجال الرقى الروحى والخلقى ، كالنظام العالمى الذى أسسه محمد ، فاستظل بلوائه الملايين من مختلف الاجناس والالوان .

هذه معان تتزاحم على خواطرنا ، حين نذكر شخصية محمد وحياته ـ نبيا ورسولا ، ومصلحا ومحرزا ، وقائدا ومشرعا وهى معان ملهمة : توحى اليك بالشعر الرفيع ان كنت شاعرا ، وبالبحث والتحقيق ان كنت كاتبا أو مؤرخا ، وبالدرس والتحليل ان كنت نفســـانيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا ، وبالأسوة العملية النافعة أنكنتزعيم أمة ، أو قائد ثورة ، أو بانى دعوة من دعوات الاصلاح الانسانى . وهذه المعانى

ممثلة فى الادب الاسلامى القديم والحديث ، وفى الكتابات الغربية التى تناولت الاسلام وتراثه • فلو أن باحثا ادعى أن شخصية محمد النبى العربى أوسع شخصيات التاريخ الحضارى فى جوانبها ، وأحقهـــا بالعناية والدرس ، ما كان فى ذلك مخالفا الواقع ، ولا متجاوزا حد الانصـــاف •

والحقيقة أن هذه الظاهرة لها أسبابها ومبرراتها من التاريخ : فقد جاء محمد برسالته السماوية ، مصدقا لما بين يديه من الرسالات ، حاضا على الايمان بأنبيائها ورسلها ، مقررا أنها كلها تنبع من معين واحد ، وتهدف الى غرض واحد ، داعيا اتباعها الى كلمة سواء بينه وبينهم أن تكون العبادة لله وحده ، وألا يتخذ الخلق من دونه شريكا له • وهكذا جاءت رسالة محمد خاتما للرسالات ، وبرهانا على صدقها جميعا ودعوة الى وحدة الدين ــ وهى وحدة تقوم على الايمان بالله واحد ، وعلى شعور الخلق جميعا بأنهم مرتبطون برابطة واحدة مقدسة •

هذا الفهم لحقيقة الدين ظاهرة مهمة فى تاريخ الاسلام ، وفى عظمة مؤسسه ، وهى ظاهرة لها أثرها فى التفكير الدينى عند المسلمين ، وفى احترامهم وحبهم لأنبياء الله ورسله كافة ، وفى موقفهم من حرية العقيدة وعدم الاكراه فى الدين • ولقد يحدث أن يشذ شاذ فيتجنى على محمد ورسالته ، أو يحاول أن يشكك فى أصل من أصول تلك الرسالة أو فى حكمة مبدأ من مبادئها ، ولكن المسلم الحق لا يستبيح لنفسه أن يقابل التجنى بمثله ، أو أن يسىء الادب فى حق واحد ممن اصطفاهم رب السماء لرسالاته ، فان دينه يطـــالبه أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا • ومن هنا يجد المسلمون أنفسهم دائما فى موقف واضح حين يدعو الدعاة فى العصر الحديث الى التآلف بين أهل الأديان السماوية ، والى وقوفهم معا فى وجه المادية والالحاد المعطلين لمثل الانسانية وقيمها الروحية •

وشىء آخر يجب أن يذكر فى معرض الحديث عن محمد الرسول : ذلك هو العنصر التاريخى، فقد جاء النبيون بالآيات فانصرمت ـ كما يقول شوقى ، وجاء محمد بآية مستمرة على الدهر ، محفوظـــة من التحريف والتبديل ، باقية الاثر فى حياة ملايين الناس وأخـــلاقهم ومعاملاتهم ، وثقافتهم وتفكيرهم ٠

هذا ـ اذن ـ هو جانب الرسالة السماوية من حياة محمد وعظمته٠

وهناك جانب آخر ، وهو جانب محمد الانسان العربى ، المعروف النشأة ، والتاريخ والسيرة ، والصفات والملامح ، محمد الذى تعبد كما يتعبد كل بشر من ذوى النفوس الصافية المتأملة ، والذى أعـــد نفسه بالعبادة والتفكير لتلقى رسالة ربه ، والذى جاهد كما يجاهد كل بشر فى سبيل عقيدته ، والذى أوذى فصـــــبر ، لم تضعف له عزيمة ، ولم يثنيه وعد أو وعيد ، ولم يقابل اساءة قومه الا بطلب الغفران لهم ٠ حتى اذا اذن الله أن يعطى الدين سياجه البشرى من من القوة والكفاح ، سل محمد سيفه ، وناضل فى مقدمة الصفوف ، وثبت فى مواقف الحق دمضى الى غايته ، يبنى أمته ، ويضع لها قواعد حياتها ، ونظام أخلاقها ومعاملاتها ٠ حتى اذا أتم وضع الاســـاس ، واختاره الله لجواره ، ترك الامة العربية موحدة الهدف ، متينة القواعد مشدودة السواعد ، متأهبة لحمل ألوية الدين الحنيف الىأقصى أرجاء المعمورة ٠

كانت حياة محمد ـ اذن ـ مرحلة لها جلائها فى تاريخ البشرية كلها : فقد تكشفت عن دين واضح الاصول ، وشريعة متماســـكة البناء ، وأمة مستعدة لحمل مشعل الحضارة ، وفلسفة فى الحياة كلما ارتقت الانسانية وجدت فيها جمالا والهاما وهداية ٠

والجانب الثالث الذى يؤلف فصلا كبيرا فى كتاب عظمة « محمد » مافجرته حياته وسيرته وتعاليمه وكتابه وحديثه من ينابيع المعـــرفة

والثقافة: فأما حياته فقد بعثت طائفة من أولى العلم على أن يعنوا بتتبع سيرته ، ويحققوا أحداثها ، وينظروا بالعين الفاحصة فيما نسج حولها من قصص ، وينبهوا الى مافيه من تزيد ، وبذلك مهدوا السبيل لنشأة علم التاريخ عند المسلمين ، وبدأوا تلك السلسلة من الجهود التى ظهرت ثمرتها عند ابن هشام والطبرى ، وابن الاثير وابن خلدون والمقريزى وغيرهم •

وأما كتابه فقد أيقظ عقول العرب وغيرهم من الاجناس التى اعتنقت الاسلام – أو دانت لسلطانه – وبعث فيهم نهضة فكرية خصبة الجوانب ، ونبه العرب الى العناية بلغتهم فضبطوا مقاييسها ، وحددوا نظمها ، والى العناية بأدبهم ، فجمعوا متفرقة ، واستنفذوا ثروته من يد الضياع والنسيان ، والى النظر فى ذوقهم فبحثوا ظواهره الجمالية والبلاغية ، وبذلك جمعوا حول القرآن دوائر من المعارف فى التفسير واللغة والادب والنقد والبلاغة وأسرار التشريع •

وأما حديثه فقد علم هذه الأمة معنى التحقيق والتدقيق ، فكان العالم من علمائها يرحل الاشهر الطوال ، فى طلب نصوص الحديث يتعرف سيرة رواتها ، ويقابل بين ما أثر من صيغها • وقد نقلوا هذا الميدان الذى أفادوه فى دراسة الحديث الى ميدان آخر من ميادين المعرفة هو الادب واللغة ، فنشأ فيه علم كبير هو علم الرواية ، وتخصص فيه علماء مشهورون كما تخصص البخارى ومسلم وغيرهما فى رواية الحديث •

وثمت جانب رابع من حياة محمد وهو أدبه مع أهله وسيرته فى صحابته ، وتعهده لاتباعه ، وطريقته فى تربية النفوس ومعالجة أدوائها ، وحبه لربه ، وخشيته منه ، وموقفه من الحياة ، وما تجلبه المقادير من ثكل ولد أو فقد عزيز ، وما الى ذلك مما سجلته كتب السيرة فى استقصاء وتفصيل •

هذه الجوانب من حياة النبى العربى مصورة فى الادب الاسلامى تصويرا يختلف حسب اختلاف الآحوال الاجتماعية والسياسية والثقافية ، التى مرت بالمسلمين • ويبدو هذا الاختلاف فى شكل طريف اذا وضعنا ـ مثلا ـ بردة البوصيرى وما نسج على نهجها ، الى جانب مطولات الرسائل والقصائد التى كان الاندلسيون يدبجونها فى ذكر الرسول ومناقبه ، ويلقونها فى المناسبات العامة التى كانت تقام لاحياء المولد ، أو يرفعونها الى مقام الرسول ، يصفون فيها أحوال زمانهم ، أو يشكون عدوان الاعداء على بلاد الاسلام ، أو يحنون الى منازل الوحى ومعاهد الرحمات فى مكة والمدينة • ويتضح الفرق أكثر اذا وضعنا كل أولئك الى جوار قصائد شوقى فى نهج البردة ، وذكرى المولد وغيرهما • والى جوار المؤلفات التى أخرجها كتابنا المحدثون عن سيرة الرسول وعبقريته • ولكن الشىء الذى لاشك فيه أنك واجد فى كل هذه الثروة من الادب ـ رغم اختلاف التصوير ومنزعه ـ طابعا عاما مشتركا يقوم على الحب الخالص للرسول والاجلال لشخصه والايمان بصدق رسالته وجمال شريعته •

فالنغمة التى تسمعها من ناظم الموشحة الاندلسية فى القرن السابع الهجرى اذ يقول مناجيا الرسول مصورا مكانته فى نظام الوجود :

يامصطفى والخلق رهن العدم	والكون لم يفتق كمام الوجود
مزية أعطيتها فى القدم	بها على كل نبى تسود
مولدك المرقوم لما نجم	أنجز للامة وعد السعود
ناديت ـ لو يسمح لى بالجواب	شهر ربيع ـ ياربيع القلوب
أطلعت للهدى بغير احتجاب	شمسا ولكن مالها من غروب!

هذه النغمة تسمع شبيهتها من شاعر العروبة والاسلام فى العصر الحديث آذ يهتف ـ ولكن على لحن آخر ـ مبرزا أسرار الشريعةالسمحة التى جاء بها محمد :

بك ياابن‌عبد اللهقامت سمحة ... بالحق من ملل الهدى غـراء
بنيت على التوحيدوهو حقيقة ... نادى بها سقراط والقـدماء
فرسمت بعدك للعباد حكومة ... لاسوقة فيهـا ولا أمـراء
الله فوق الخلق فيها وحـده ... والناس تحت لوائها أكفـاء
أنصفت أهل الفقرمن‌أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سـواء

كانت وجهتنا فى هذه السلسلة من الأحاديث أن نضـــع أمام الشباب المثقف صورة من الميادين الانسانية الواسعة التى أضاءها الاسلام ، ومن الدور الذى قام به فى بناء الحضارة العالميـــة ، لكى يدركوا جمال دينهم ، وسعة أفقه ، وصلاح مقاصده ، وملاءمتــه لسنن الحياة .

وقد خصصنا فيما مضى من هـــذه الســـلسلة حلقة لبيـان عناية الغربيين المعاصرين ـ فى أمريكا وأوربا ـ بدراسة الاسلام وثقافته والمعضلات التى تواجهها الأمم الاسلامية الحديثة .

ونريد أن نسـير مـع هـذه الحلقـة خطـوة أخـرى ، فنعـرض نماذج من دراسات الباحثين الغربيين عن الاسلام وعن مشاهير علمائه ومصلحيه . وسنأخذ للنموذج الأول مقالا لعالم أمريكى عن « نظـرة الاسلام للانسان » وأثر تلك النظرة فى التفكير الاجتماعى والنظرية السياسية .

ان موضوع الانسان ـ ومصيره ومكانه من الوجود ـ قد شـــغل أذهان المفكرين الغربيين لما له من صلة بنظرات السياسة والأخلاق، ولما له من علاقة بفلسفات الحكم والاجتماع فى المعسكرات السياسية المختلفة .

ولهذا الموضوع مكان بارز فى التفكير الاسلامى ، وأسسه الاولى مستمدة من نصوص القرآن الكريم : فهى تقرر أن الانسان مدين بوجوده لخالقه الذى أنشأه وصوره ، ونفخ فيه من روحه ، وفضله

على سائر الكائنات • وهذا الكائن المفضل أبدعته يد القدرة من ماء وطين ، فهو من هذه الوجهة أرضى المادة والتكوين ، وهو بما نفخ الله فيه من روحه كائن يمت الى السماء بسبب • وقد شرفه الله بأن جعله خليفة فى الارض ، وأخضع له سائر المخلوقات ، وزوده بالعقل والارادة ، وأعطاه القدرة على تكييف السلوك ، والحكم على الاشياء ، ومعرفة الخير والشر ، والنافع والضار ، وكل أولئك مقرر صريح فى نصوص القرآن •

على أن هناك ناحية من الانسان حار فى أمرها المفكرون طوال العصور ، وهى مسألة حرية الفرد وارادته بجانب القانون الالهى ، وما جرى به القلم من قضاء وقدر •وقدأخذ علماء المسلمين بنصيبهم من بحث هذه الناحية ، ورجعوا فيها الى نصوص القرآن ، فوجدوها من جهة تؤكد سلطان الله المطلق ، وأنه لايحدث فى ملكه الا ماأراد ، وأن مشيئته الأزلية لابد نافذة ، وأنه يهدى من يشاءويضل من يشاء، ووجدوها من جهة أخرى تؤكد جانب الحرية والمسئولية فى الانسان: فكل أمرىء مسئول أمام الله عن أفكاره وأعماله وأحكامه ، ولا تستقيم المسئولية الا مع حرية الاختيار • ومعنى هذا أن الله يرشد الانسان عن طريق الوحى والنبوات والفطر السليمة الى المبادىء الاخلاقية العامةالمنبعثةعن الارادة الالهية ، وأن الانسان بما أودع اللهفيه من قوة فى استطاعته أن يختار بين أن يتقبل هدى الله أو أن يتحول عنه ؛

هذا ومن الافكار الاساسية فى الاسلام فكرة المساواة الكاملة بين بنى البشر ، اذ هم جميعا من خلق الله ، فلا يفضل انسان انسانا بشرف مولده أو نوع وظيفته ، أو جاهه فى قومه ، وليس فى الاسلام جماعات ممتازة ، ولا أمم مختارة • والطريقة الوحيدة التى يمكن أن يتميز بها بعض الناس عن بعض هى كيفية استجابتهم لله ، وقبولهم لهديه ، وموقفهم من وحيه •

هذه الفكرة تضمنتها أصول الاسلام وشعائره التى ترمى الى أن يفقه الناس أنهم جميعا سواسية أمام الله : ففى الصلاة يقف العظيم والصغير متجاورين فى عبادة الله ، وفى الصوم يستشعر النـــاس غنيهم وفقيرهم الخضوع لله ، ويدركون قسوة الجوع ومرارة الحرمان ، وفى الحج يتجرد المسلمون الا من لبوس من قطعة واحدة يشعربالوحدة والمساواة ، ويقضى على التمييز الطبقى والمالى اللذين يظهـــران عادة فيما يلبس الناس ، أما الزكاة فتبرز الاحساس بالمسئولية نحو خلق الله الذين تركتهم صروف الدنيا بلا ضمان .
وهناك من أصول التشريع الاسلامى أصل يمكن أن يكون له أثره فى اخماد النزعات الاستبدادية عند بعض الحكام والفقهاء ، ذلك هو مبدأ الاجماع الذى يعتبر مظهرا للارادة العامة ، والذى يحمل فى طياته بذرة مهمة من بذور الديموقراطية .

هذه النواحى التى ذكرناها ـ اذن ـ تؤكد أهمية الفرد فى نظر الاسلام ، من حيث هو موجود يضىء بين جوانحه قبس من نور السماء ، ومن حيث هو كائن حر ذو ارادة وعقل واختيار ، ومن حيث هو ذات لها قيمتها وأهميتها التى لاتتوقف على مال أو منصب أو جاه .

وبجوار هذه الاهمية التى خلعها الاسلام على الفرد ، سار العرف الاسلامى على تصور آخر يتعلق بالفرد فى الجماعة ، ويمنح النـــاس وسيلة للترابط واحساسا بالاتحاد لايوجدان أحيانا فى التصورات الغربية الحديثة للانسان . ذلك هو ما يعرف عند المســلمين بدار الاسلام ، وهو يضفى على كل مسلم شعورا بالترابط الوجدانى مع كل مسلم آخر ، ويهب له احساسا بالامن . ذلك أنه يشعر بكونه فى داره أينما سار فى بقعة من تلك البقاع الشاسعة المتنـــاثرة من الساحل الاطلنطى لافريقيا الى قلب المحيط الهـــادى ، حيثما كان الاسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة . وهذا من شأنه أن يخلق ـ لو أحسن فهمه واستخدامه ـ روحا جماعية ، ووحدة بين شعوب

لها أهميتها البالغة • ومن الملاحظ أن هذه الروح تظهر أقوى ماتظهر عندما يهدد العالم الاسلامي ـ أو أي قسم من أقسامه ـ مصدر غير اسلامي ، وانها عرضة أن تنسى حين لايهدد المجموع خطر وشيك من الخارج • ومع ذلك فهي قوة حقيقية يمكن أن تصبح عاملا له أثره في حياة العالم الاسلامي كله •

هذه الآراء التي نذكرها هنا عن موقف الاسلام من الفرد ومن الجماعة الانسانية تلخيص ـ نقلناه بتصرف ـ لما أورده العالم المسيحي الأمريكي الذي أشرنا اليه في أول الحديث ،وقصدنا من ايراده أن يتنبه المسلمون ـ وأخص شبابهم ـ الى مافي دينهم من سماحة وسمو ، والى مافي مبادئه من أصالة وعمق ، وأن يستمعوا لهذه الشهادة المنصفة للاسلام يسجلها عالم غير مسلم ، مستدلا عليها من نصوص القرآن ودراسات العلماء الماضين ، وهو يتابع موضوعه الى العصر الحاضر ، فيحلل آراء بعض المحدثين من العلماء والمفكرين المسلمين ، من أمثال المصلح المصري « محمد عبده » والفيلسوف الباكستاني « محمد اقبال » ، اللذين يتفقان في أن كلا منهما يؤكد استقلال الارادة الانسانية • ويبرز الباحث الامريكي عناية الشيخ محمد عبده بأن يصحح مادرج عليه الغربيون من نسبة أي جمود أو تأخر في البلاد الاسلامية الى عقيدة المسلمين في القضاء والقدر • صحيح أن العامة قد اصطبغ تفكيرهم بالتسليم القائم على الاعتقاد في القضاء الالهي ، ولكن مفكري الاسلام من جميع الفرق يعتنقون مذهب حرية الفرد في الاختيار •

ويقرر محمد عبده في رسالة التوحيد أن الانسان يدرك أعماله الاختيارية ، ويزن عواقبها بعقله ، وينسب اليها القيم عن طريق ارادته ، ويقوم بها بدافع في نفسه ، عالما أن هناك قوة ـ أعظم من نفسه ـ هو مسئول أمامها ، وأن هدى الله ميسور لمن يجاهد في سبيل الاهتداء الى الحق والخير والصواب ، مصداقا لقوله تعالى :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » وكما أن الناس تحكمهم فى حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة ، كذلك تحكمهم فى كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية ، والناس قادرون على ادراك هذه السنن الالهية بالتدبر ، وعن طريق الوحى ، ولكنهم أحرار حين يعملون بها أو يخرجون عليها • والامم تصل الى الرفعة أو تقصر دونها حسب اختياراتها الاخلاقية الارادية ، أو حسب الاتجاه الاخلاقى العام لسياساتها الاجتماعية • وقد وهب الله الانسان الحس والعقل ، وفى هذين الكفاية ليستكشف ماهو ضرورى للمحافظة على النفس ، وليميز الصواب من الخطأ ، ووهب له العاطفة والشعور اللذين يدفعان ادراكه العقلى ، ووهب له الارادة الحرة ليتصرف فيما يصل اليه عقله وتوجه اليه عاطفته •

ويصل الباحث من كل هذا التحليل الى نتائج عامة أهمها أن الحضارة الاسلامية ذات أساس متين يمكنه من الاصلاح فى ميادين السياسة الاجتماعية ، فان مافى نظام الاسلام الاساس من مساواة ومن ديموقراطية يبعث على ضروب من المشروعات ترمى الى تخفيف الحرمان والضعف اللذين تعانيهما أى طائفة داخل الجماعة • وحيثما أنتج النظام الطبقى للمجتمع أقلية غنية وأغلبية فقيرة ، فان المصلحين يستطيعون أن يعتمدوا على المبادىء الاخلاقية الأساسية فى الاسلام فى الوصول الى تشريع يكون من شأنه رفع مستوى المعيشة ومنح طبقات المجتمع كلها فرصا متكافئة فى التعليم وفى الدخل المناسب وفى التعبير الاجتماعى •

أما فى الميدان السياسى فان العالم الاسلامى فى وضع يسمح له أن ينمى فلسفته الخاصة دون أن يدفعه التقليد الاعمى الى اتباع نظريات سياسية واقتصادية تجلب اليه من هذا المعسكر أو ذاك • والامم الاسلامية بما بينها من أواصر الوحدة والترابط

تستطيع أن تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع فاضل من المجتمع العالمى ، ومن العاملين على ايجاد مثل ذلك المجتمع الذى ينظمه ويسيطر عليه قانون دولى ٠

المكتبة العربية في خدمة الحضارة

السيرة النبوية ـ لابن هشـــــام

تتمثل حيوية الفكر الاسلامى ونشاطه فى تلك الثروة الضخمة من الكتب التى أخذ المؤلفون الاســلاميون يكتبونها منـذ أن بدأت نهضتـهم العقلية فى الازدهار فى القرن الثـانى الهجرى ، والتى سايرت ركب الحضـارة طوال العصـور ، وخـلدت آثار العبقرية الاسلامية فى الفقه والتشريع ، واللغة والادب ، والتاريخ والرحلات والفلسفة والطب ، وســائر فروع العلم التى عرفتها الانسانية الى اليوم ..

وتمتاز المكتبة الاسلامية بميزة لم تتوفر لسواها من المـكتبات : ذلك أنها تستمد الهامها ونموذجها من كتاب سماوي خالد ، ضرب لها المثل الاعـــلى فى البيان ، وفتح أمام أصـحابها آفاق المعرفة ، ووجههم الى الدرس والبحث . فما هو الا أن استقرت الاوضاع فى عالمهم الواسع الجديد حتى عكفوا على دراساتهم فى شـغف وجد ، وحتى سلكوا سبل التخصص فى ميادينهــا ، ونظموا طرق جمـع المعلومات فيها ، وأخذوا أنفســهم بشىء من النقد لما يجمعون ، فلم ينته القرن الثانى الهجرى حتى كانت نهضتهم التأليفية قد بـدأت تؤتى ثمارها فى صورة كتب لا تزال ـ وستظل ـ عماد الباحثين فى الدراسات الاسلامية والعربية .

ومن الثمار الاولى لتلك النهضة كتاب « السيرة النبوية » الذى سنبدأ به سلسلة هذه الاحاديث تيمنا بصاحب « السيرة » صلوات الله وسلامه عليه ، ومتابعة للتاريخ الزمنى للمكتبة الاســلامية ، واعتزازا بكتاب اسلامي قديم شاركت « مصر » فى فضل تأليفه . فالكتاب يمثل جهودعالمين من السابقين فى تاريخ «المغازى والسير»:

أحدهما « محمد بن اسحاق » المدنى الذى توفى فى منتصف القرن الثانى للهجرة ، والثانى عبد الملك بن هشام المعافرى المصرى الذى توفى بمصر فى أوائل القرن الثالث ، فأما العالم الأول فقد جمع مادة السيرة من الاخبار والروايات التى كان يتناقلها مجتمع « المدينة » ويحفظها رواتها ومحدثوها ، وأضاف الى ذلك ما جمعه أثناء زيارته « للاسكندرية » وسماعه من أهل الحديث بها ، وأما العالم الثانى – وهو ابن هشام – فقد أعمل فيها يد التنظيم والتلخيص والنقد : فاقتصر من مادتها الواسعة على ماكان خاصا بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم ما كان منصبا على سيرته وحياته وغزواته ، تاركا بعض ما أورده ابن اسحاق مما ليس للرسول فيه ذكر ، ولا نزل فيه من القرآن شيء ، ولا دعت اليه ضرورة التفسير والاستشهاد ، مهملا بعض أشعار رواها ابن اسحاق وشك هو فى صحة نسبتها الى أصحابها ، مستقصيا بعض التفاصيل مما جمعه أثناء اقامته فى مصر .

وقد أبى أهل المغرب الاسلامى الا أن يأخذوا بنصيبهم من خدمة سيرة الرسول ، فانتدب عالم ضرير من علمائهم – هو «عبد الرحمن السهيلى » الذى عاش فى القرن السادس الهجرى – لكتابة شرح على سيرة ابن هشام سماه « الروض الآنف » وجمع مادته كما يقول من أكثر من مائة وعشرين مرجعا .

فالكتاب الذى بين أيدينا اذن يمثل محصول أربع مراحل فى التاريخ لسيرة الرسول صلوات الله عليه ، الأولى مرحلة السابقين الأولين من حفاظ السيرة ومدونى صحفها من أمثال « عروة بن الزبير » « وابن شهاب الزهرى » ، والثانية : مرحلة الجمع الشامل لاخبار السيرة وكل ما يتصل بها من تاريخ وقصص وأدب على يد « ابن اسحاق » ، والثالثة مرحلة التنظيم والتلخيص على يد « ابن هشام » وتلك المراحل الثلاث تشهد بما كان لمفكرى القرنين الاولين من

الهجرة فى المدينة ومكة والبصرة ومصر من عناية بسيرة رسولهم وبجمع مادتها وتمحيصها ووضعها فى مكانها من حلقات التاريخ الاسلامى ٠

أما المرحلة الرابعة فهى مرحلة الشرح والتفسير التى ذهب بفضلها أهل المغرب الاسلامى ، هذه الجهود المتتابعة أثمرت مرجعا هاما فى سيرة الرسول اعتمد عليه المؤرخون الاسلاميون خلال العصور ، كما اعتمد عليه كتابنا المحدثون من أمثـــال « طه حسين » و « العقاد » و« هيــكل» و«الحكيم» فى تاريخهم لحياة الرســـول ، أو تحليلهم لعبقريته ، أو عرضهم لســـيرته فى قالب قصصى جديد ، وقد أدرك الغربيون قيمة هذا الكتاب منـــذ القرن الماضى فترجموه الى بعض لغاتهم كالالمانية ، وطبعوه مرارا وأضافوا اليه الفهارس والتعليقات ويقوم الآن مستشرق انجليزى معروف بترجمة الكتاب الى الانجليزية وقد أوشك على الانتهاء من مهمته ٠

ومنذ عشرين سنة مضت قام ثلاثة من الباحثين المصريين باعادة طبع السيرة النبوية لابن هشام ، فحققوها وقابلوا بين نســـخها المطبوعة والمخطوطة ، وضبطوها ووضعوا فهارسها ، وبذلك سهلوا على القارىء العربى الحديث دراستها والرجوع اليها ٠

الكتاب يبدأ كما قلنا بايراد نسب الرسول منذ « اسـماعيل » مبرزا صلة مصر بهذا النسب من طريق « هاجر » أم اسماعيل التى نشـــأت فى « دلتا مصر » ، ومن طريق « مارية » التى تسراهـــا الرسول فولدت له ابنه ابراهيم ، والمروى أنها نشـــأت فى صـعيد مصر ، ويذكر الكتاب بعض الاحداث والظواهر المشهورة فى تاريخ الجاهلية كقصة سد مأرب واعتناق تبع ملك اليمن النصرانية وقصة أصحاب الفيل وغيرها مما وردت الى الكثير منه أشارات فى القرآن ٠ وهو يفصل فى بعض هذه القصص تفصيلا أفاد منه من جاء بعده من المفسرين والمؤرخين : كالذى فعل فى قصة « الفيل » اذ بدأها من

غلبة أبرهة على اليمن ، وبنائه الكنيسة التى أراد أن يصرف اليها حج العرب ، وعزمه على هدم الكعبة بيت الله الحرام ، وما كان بينه وبين عبد المطلب من لقاء وحديث ، وما وقع لأبرهة حين هيأ فيله وعبأ جيشه ، وتهيأ لدخول مكة ، وماحدث للجيش المغير ، اذأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار دقاق يحملها ، لا يصيب منهم أحدا الاهلك ، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا وراحوا يتساقطون هنا وهناك وأصيب «أبرهة» فى جسده فأخذ ينتثر . ويذكر « ابن اسحاق » هنا أن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب كان ذلك العام .

فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كان مما عد الله على قريش من نعمته عليهم وفضله مارد عنهم من أمر الحبشة فأنزل فى ذلك سورة الفيل . ويستمر الكتاب فيفسر الفاظ السورة .

ويروى أبن اسحاق فى آخر هذه القصة عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس . ثم يورد نماذج مما قيل من الشعر فى هذه الحوادث بعضه لامية بن أبى السلت وبعضه لشعراء اسلاميين كالفرزدق وابن قيس .

هذه التفاصيل لها أساسها التاريخى ، ومن الراجح أن القصص قد اختلط فيها بالتاريخ ، ولكنها على أية حال تفيد الباحث فى التفسير وفى الادب وتعطى صورة من أحداث البيئة العربية فى المرحلة التى ولد فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه . ثم يستمر بنا الكتاب فى تتبع النسب النبوى من « معد » الى « محمد » ويعطينا معالم من نشأته ، وخروجه مع عمه ابى طالب فى تجارته الى الشام ، وما كان لهذا الركب من أمر مع « بحيرا » الراهب ،

وما نصح به الراهب أبا طالب أذ قال له « ارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت ليبغينه شرا ، فانه كائن لابن‌أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به الى بلاده ، ويتناول الكتاب الاحداث التى تتصل بحياة الرسول قبل بعثته ، كحرب « الفجار » التى اشترك فيها وهو فى حوالى الخامسة عشرة من عمره • ثم يقص علينا أمر خروجه فى تجارة خديجة الى الشام وزواجه منها وهو فى سن الخامسة والعشرين ، وحديث « خديجة » بشأنه مع «ورقة بن نوفل» ، وبناء الكعبة واختلاف قريش فيمن يضع الحجر الاسود ، وتحكيمهم محمدا فى هذا ، وما كانت عليه الكعبة قبل البعثة فى مظهرها ومساحتها وصورتها ، وما سبق البعثة من أمور وظواهر كانت كالطلائع لها ، والى بعضها أشار القرآن الكريم • أما سيرة الرسول من أول البعثة فالكتاب يتبع فيها منهجا مفصلا ، جاريا على نسق الحوادث والغزوات وتتابعها ، وما نزل فى كل حادثة من قرآن ، وما قيل فيها من شعر ، ومن اشترك فيها من الاشخاص ، وما أثر عن الرسول فيها من قول أو عمل ، وما صاحبها من التشريع والاحكام ، وما لابسها من العهود والمواثيق ، وما سجل الرسول وأصحابه وأنصاره فيها من ضروب البسالة والاقدام ، وما امتحن به المسلمون أحيانا من بلاء أو هزيمة ، وما وضع الرسول من الاسس والقواعد للدولة الاسلامية الجديدة ، وما رسم لها من الخطط المستقبلة ، التى تولى تنفيذها خلفاؤه من بعده • وهكذا نجد أنفسنا أمام سجل واف لحياة تلك الشخصية العظيمة ، التى غيرت وجه‌التاريخ ، وأخرجت للعالم حضارة انسانية راقية ، تقوم على دعائم العقيدة والمعرفة والفضيلة والاخوة ، وهذا السجل يستمد مادته من مصدر لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن ، ومن الاخبار التاريخية والقصصية والأدبية التى حفظها الرواة وتناقلوها ، حتى أوصلوها الى عهد التدوين والتأليف ، وكتاب السيرة النبوية

على هذه الصورة يهيىء ـ فى نظرى ـ أداة من أدوات التربية الاسلامية الناجحة التي تنفع الشباب فى دور فتوتهم ورشدهم ، فهى تصلهم بحياة الرسول فى طريقة محببة تجمع بين القرآن والتاريخ والقصص والادب • وكل ما تحتاجه أن يقوم باحث حديث فيعرضها من جديد عرضا منظما ، يناسب تفكير العصر الحاضر ، ويربط بين بعض هذه النواحى والبعض الآخر ، ويعدها لأن تكون غذاء صالحا لعاطفة الشباب الدينية ومعارفه التاريخية وذوقه الادبى ••

كليلة ودمنة ـ لابن المقفع

كان من أثر الاسلام على الأمة العربية أن أصبحت لغتها لغة ثقافة عالمية ، وان اتجهت مكتبتها وجهة انسانية عامة ، فسجلت المعرفة حينما وجدتها ، ونقلت من تراث الأمم الأخرى ماشاءت لها جهود المترجمين أن تنقل ، وأتاحت للغرب أن يتصل بحكمة الشرق وأدبه ، وأن يفيد منهما فى نهضته وتقدمه . وهكذا قدمت المكتبة العربية للحضارة خدمة مضاعفة ، مرة من طريق الابداع العربى ، وأخرى من طريق النقل عن الامم القديمة . وقد سارت الحركتان جنبا الى جنب منذ القرن الاسلامي الأول ، واضطلع العرب وغير العرب والمسلمون وغير المسلمين بعبء التأليف والنقل فى الدولة الاسلامية المترامية الأطراف ، ففى الوقت الذى شغل فيه بعض المؤلفين برواية التفسير وشرح الحديث وجمع اللغة والادب واستنباط الاحكام الشرعية ، كان هناك آخرون يكشفون عن تراث الهند والفرس واليونان ، وينقلون منه الى اللغة العربية ضروبا من العلم والحكمة والأدب ، ومن عجيب الأمر أن بعض زعماء هذه الحركة الفكرية كانوا من أبناء الأمم الأخرى ممن درسوا لغة العرب وحذقوا أساليبها ، بالاضافة الى ما حذقوا من أساليب لغاتهم الأصلية ، وقد تم هذا ولم يمض قرن واحد على ظهور الاسلام وانتشار اللغة العربية فى الأقطار التى أظلتها رايته . ولعل « عبد الله بن المقفع » ـ الفارسى الاصل ـ يمثل الطليعة الأولى من زعماء هذه الحركة أصدق تمثيل ، ولعل كتابه « كليلة ودمنة » يصلح نموذجا حسنًا لهذا الجانب الخصب من مكتبتنا العربية .

لهذا الكتاب تاريخ طويل يتجاوز الألفين من السنين ،فالمعروف أنه كان عند الهنود القدماء كتب تضمنت طائفة من الحكم والأمثال التي جروا على وضعها في قالب قصصي على ألسنة الطير والحيوان ، لتكون أعذب وقعا على الخيال ، وأبعد تأثيرا في النفس ، وليأخذ المؤلف فيها حريته في نقد ما يريد نقده من ظلم سياسي او فساد اجتماعي ، دون تعرض لعقوبة من حاكم مستبد أو سلطان جائر ٠

وهم يذكرون أن بلاد الهند في تاريخها السابق على الميلاد منيت بملك ظالم ، أساء السيرة في الرعية وأهدر حقوقها ، وكان في أيامه فيلسوف مصلح شجاع يقال له « بيدبا » أخذ على عاتقه أن ينصح للملك وأن يوجهه الى العدل وحسن السيرة ٠ فغضب الملك من جرأة هذا الفيلسوف ، وأرسل به الى السجن ، ثم روى في الأمر فأطلق سراحه وأخذ ينتصح بنصيحته ، ويمضي على ما رسم له من حسن السيرة والعدل في الرعية ، ثم أن الملك طلب الى «بيدبا» أن يضع له كتابا فيه ضروب الحكمة ، فاعتكف بيدبا مدة جمع فيها طائفة من التجارب في شئون الحكم ، وضروب المعاملات بين الناس ، واختار لها قالبا رمزيا ، تقوم بالادوار فيه أشخاص من الطير والحيوان ، تجرى الحكمة على ألسنتها ، ويتمثل منطق الحياة في أفعالها ، وقسم ذلك الى أبواب ، كل باب يبدأ بفكرة رئيسية على هيئة سؤال من الملك يقول فيه للفيلسوف : اضرب لي مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء ، أو حدثني عن أمر الواشي النمام كيف تكون عاقبته ، أو عن اخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض ، أو عن العدو الذي لا ينبغي أن يغتر به وان أظهر تضرعا وملقا ، أو يقول الملك في سؤاله : اضرب لي مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فاذا ظفر بها اضاعها ، أو مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب ٠ الى غير ذلك من الاسئلة التي تتناول مختلف المواقف في الحياة ، فما يسمع الفيلسوف سؤال الملك

حتى يجيبه عليـــه فى صورة حكاية تحدث بين الاســـد وطائفة من الحيوان حواليه ، أو بين جماعتين من البوم والغـــربان ، أو بين ظبى وجرذ وغراب وسلحفاة ، أو بين سائح وصائغ وأسد وحية • وهـذه الحكايات تتخللها وتتفرع عنها حكايات أخرى ، توضح كل منها ناحية من نواحى الكائن الحى فى غدره أو وفائه وفى ذكائه أو غبائه وفى قوة حيلته أو ضعفها ، وربما عقدت موازنة بين الانسان والحيوان فى واحد من هذه الجوانب •

أتم « بيدبا » كتابه على هذه الصورة وعرضـه على الملك فأعجب به وأمر بحفظه فى خزائنه • ثم شاع أمر الكتاب فى البلاد ، وسمعت به فارس فى أيام ملكها « كسرى أنو شروان » فأوفد الملك طبيبـــا من أمهر حكماء مملكته الى بلاد الهند ، وأوصاه أن يحتال حتى ينقل نص هذا الكتاب الهندى النفيس ، فقام الطبيب بمهمته ، وترجم الكتاب بعد الى اللغة الفارسية ، وأصبح جزءا من ثقافتها • فلما جاء الاسلام وبدأت الحضارة العربية فى الاتساع والازدهار ، اتجه « عبد الله بن المقفع » الى ترجمة بعض الذخائر الفارسية الى اللغة العربية ، فـكان منها هذا الكتاب القصصى ، البارع ، الذى اختـار له مترجمه أرصن الأساليب العربية وأجزلها حظا من البلاغة والبيان ، والكتاب مسمى باسم حيوانين من بنات آوى يقال لاحدهما « كليلة » وللآخر « دمنة » يظهران فى الباب الأول منه ، ويقومان بدور بارز فى أحداثه ، ويبرع أحدهما فى تدبير المكايد وافساد الصلات الى أن ينكشف غدره وخبث تدبيره فيلقى حتفه ، والكتاب ـ بعـد ـ حافل بضروب الأمثـال والحـــكايات التى تناقلتها الكتب الاخـــرى ، وتحدث بها الناس فأصبحت جزءا من التراث القصصى العام فى الفـكر العربى : فاذا تحدث متحدث عن تدبير الرجل العاقل وانه قد يبـــلغ بحيلته مالا يبلغ بالخيل والجنود ، لم يلبث أن يخطر فى ذهنه المثل الذى ضربه « بيدبا » فى ذلك ، من القبرة التى وطىء الفيل عشـــها وهشم

بيضها وقتل فراخها ، فلما ذهبت اليه معاتبة أظهر لها أنه فعل ذلك احتقاراً لشأنها ، فتركته وانصرفت الى جماعة الطير فطلبت اليهن ان يصرن معها اليه ويفقأن عينيه ففعلن . ثم طلبت الى جماعة الضفادع أن تذهب الى منخفض من الارض وتنق فيه ، فلما سمع الفيل الأعمى نقيق الضفادع ـ وقد أجهده العطش ـ أقبل حتى وقع في الوهدة فارتطم فيها ، وجاءت القبرة ترفرف على رأسه ، وقالت : أيها الطاغي المغتر بقوته ، المحتقر لأمري ، كيف رأيت عظم حيلتي مع صغر جثتي عن عظم جثتك وصغر همتك ! وعلى هذا النحو يسير الكتاب فيما يصور من عظة أو يضرب من مثل .. وفي بدء الكتاب فصل طريف عن حياة الطبيب الفارسي الذي تولى نقل نص الكتاب من الهند ، مكتوب على لسانه ، يتحدث فيه عن نشأته وعن دراسته لعلم الطب ، وعن دستوره الذي سار عليه . في معالجة الناس . والفقرة التالية تعطي فكرة عن طرافة هذا الفصل ، وتستحق أن يتدبرها أطباء العصر الحاضر يقول : « فلما همت نفسي بمداواة المرضى وعزمت على ذلك ، آمرتها ، ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التي يطلبها الناس وفيها يرغبون ، فقلت : أي هذه الخلال أبتغي في عملي ؟ وأيها أحرى بي فأدرك منها حاجتي ؟ (المال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة ؟) وكنت وجدت في كتب الطب أن أفضل الأطباء من واظب على طبه لا يبتغي الا الآخرة ، فرأيت ان أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ، لئلا أكون كالتاجر الذي باع ياقوتة ثمينة بخرزة لا تساوي شيئا ، مع أني قد وجدت في كتب الأولين أن الطبيب الذي يبتغي بطبه أجر الآخرة لا ينقصه ذلك حظه من الدنيا ، وأن مثله مثل الزارع الذي يعمر أرضه ابتغاء الزرع لا ابتغاء العشب ثم هي لا محالة نابت فيها ألوان العشب مع يانع الزرع . فأقبلت على مداواة المرضى ابتغاء أجر الآخرة ، فلم أدع مريضا أرجو له البرء ، وآخر لا أرجو له ذلك ، الا أني أطمع أن يخف عنه بعض المرضى ، الا بالغت في مداواته ، ماأمكنني القيام عليه بنفسي ، ومن

لم أقدر على القيـــام عليه وصفت له ما يصلح وأعطيتـــه من الدواء ما يتعالج به • ولم أرد ممن فعلت معه ذلك جزاء ولا مكافأة ، ولم أغبط أحدا من نظرائى الذين هم دونى فى العلم ، وفوقى فى الجـاه والمال وغيرهما ، مما لا يعود بصلاح ولا حسن سيرة قولا ولا عملا ••

وقد عبر « ابن المقفع » عن كبـــير اعجابه بمادة هذا الكتـــاب وطريقته ، فى مقدمته التى قدم بها له ، وحرص أن ينبه الى وجوه الافادة منه : فنصح باطالة التفكير فيه ، وحسن الفهم له ، ومحاولة النفاذ الى أغراضه الباطنة ، والعمل بدروسه ومقاصده النافعـــة ، وأوجب على قارىء الكتاب أن يديم النظر فيـــه من غير ضـــجر ، ويلتمس جواهر معانيه ، وألا يظن أن كل ما هنالك أخبار عن حيلة حيوانين أو محاورة بينهما ، فينصرف بذلك عن الغرض المقصـود ، وألا يوجه همته الى مجرد النظر فى أبواب الهزل ، فيـكون كرجل أصاب أرضا طيبة حرة ، وحبا صحيحا ، فزرعها وسقاها ، حتى اذا قرب خيرها وأينعت تشاغل عنها بجمع ما فيهـــا من الزهر وقطع الشوك ، فأضاع بتشاغله ما كان أحسن فائدة وأجمل عائدة •

وتقول كتبنا العربية أن « ابن المقفع » لم يكن المترجم الوحيـــد لهذا الكتاب ، وان مترجما آخر نقله الى العربية فى أيام البرامكة ، وأنه نظم شعرا فى تلك المرحلة أيضا ، غير أن النص الذى بقى على الأيام هو نص ابن المقفع ، وقد طبقت شـــهرته الشرق والغرب ، فترجم عنه الكتاب الى كثير من لغات العـــالم من قديمة وحديثة • وقد عنيت « مصر » بهذا الكتاب فطبع فيها جملة مرات منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر الى اليوم ، وظهرت منه فى سنة ١٩٤١ طبعة قاهـــرية محققة على مخطوط قديم يرجع الى ســـنة ٦١٨ من الهجرة ، ومحلاة بصور توضيحية بارعة • وحرصت « مصر » أن تفيد من هذا الكتاب فى تعليم ناشئتها ، وفى تقريب الأساليب العربية الى نفوسهم • وازداد هذا الحرص فى القرن الحاضر نتيجة لازدهار

القصص ، وارتفاع قيمته فى الادب العـــربى الحديث • والواقع ان هذا الكتاب يحتل مكانا فريدا فى تاريخ أدبنا فهو يصور الكتـابة العربية الفنية فى أقدم عصورها ، ويمثل نماذج الثقافات الهندية والفارسية والعربية ، ويقوم شـــاهدا على عبقرية البيان العربى ، ووفائه بمطالب الألوان المختلفة من التعبير ، ويذكر حضارة الغرب بما هى مدينة به لحضارة الشرق • وهو بالاضافة الى ذلك يجمع بين صدق الحكمة وطرافة القصص ، ويتيح للصغار وللكبار من قـــراء العربية فرصا للمتعة الادبية والخيالية ، ومثـــارا للتأملات الفكرية والاجتماعية •

مصطفى كامل ـ لعبد الرحمن الرافعى

منذ ثمانية وأربعين عاما فقدت مصر بطلها الشاب المكافح « مصطفى كامل » بعد أن بذر بذرة الجهاد الوطنى ، وهز العالم بصيحاته المدوية ضد الاحتلال ، وأثبت حق مصر فى الاستقلال والحرية ، فى ذلك اليوم بكت مصر فتاها بكاء الثاكلة على وحيدها ، وأصابها من فقده ما يصيب الجيش فقد قائده عند احتدام المعركة ، ولكنها لم تودعه مقره الأخير حتى أكدت له العهد أنها لن تدع راية الجهاد تسقط من يدها ، ولن تنى عن كفاحها حتى تحقق الغاية التى بذل الزعيم من أجلها صحته وجهده وحياته .

وفى مثل هذا اليوم ـ وقبل أن يكتمل نصف قرن على وفاة باعث حركة الجلاء ـ تقف مصر فى ذكراه مرفوعة الرأس بما حققت من جلاء الغاصب عن أرضها موفورة الثقة فى نفسها بعد أن شهد العالم فى حركتها التحريرية نموذجا فريدا من الثورة البنائية التى تسير على خطوات مرسومة ، فتحقق هدفا بعد هدف ، وتحرز نصرا بعد نصر ، وتعد لكل موقف عدته من مضاء فى العزم ، وصلابة فى الحق وتحرر من الخوف ، وتأهب للنضال ، ووضوح فى المقاصد ، وتجميع للجهود .

ومن حق مصر أن تستعيد سيرة هذا البطل المكافح ، وأن تقف عند كل مرحلة من مراحلها ، وأن تطيل التأمل فى جوانب تلك الشخصية العظيمة وما حباها الله به منذ فتوتها من صفات عقلية ونفسية ممتازة ، وللمكتبة العربية الحديثة أن تعتز بأن بين مؤلفاتها كتبا قد سجلت حياة هذا الزعيم الوطنى ، وأراحت لجهاده ومواقفه ،

وأثبتت كثيرا من خطبه وأحاديثه ومقالاته ، وعرضت نمـــاذج من رسائله الى بعض مواطنيه ، والى ساسة الأمم الأخرى وكتابها وذوى الرأى فيها ، ودرست تاريخ مصر فى المرحلة التى عاشها مصـــطفى كامل ، وما كان له من أثر فى تعديل هذا التاريخ وتوجيهه : وفى طليعة تلك الكتب كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » وهو حلقة مهمة فى سلسلة الكتب التى ألفها البـــاحث الـــوطنى المعاصر « عبد الرحمن الرافعى » وتتبع فيها تاريخ الحركة القوميـــة وتطورها منذ بداية القرن التاسع عشر ، والرافعى فى كتابه هـــذا يسجل تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ الى سنة ١٩٠٨ ، أى منذ أن ظهر الفتى « مصطفى كامل » على مسرح السياسة المصرية بخطبه ومقالاته ، وأسفاره الى الغرب ، الى أن انطفأ سراج حياته بعد أن عى جثمانه عن تحمل الأعباء التى كانت تكلفه آياها عزيمته وجهاده .

وأول ما يبرزه لنا المؤلف من حقائق هذه الحياة ماكان عليه الفتى الناشىء مصطفى كامل أيام دراسته الابتدائية والثـــانوية من جد واكباب على الدرس والعمل ، وجرأة وذكاء ، واستقلال فى الفكر ، وصراحة فى القول ، وبراعة فى الالقاء ، وتتكشـــف جوانب هذه الشخصية بشكل أوضح وهو طالب فى مدرسة الحقوق ، فينشىء وهو فى سن التاسعة عشرة مجلة أدبية وطنية يسميها « المدرسة » يديرها ويحررها ، وهى أول مجلة مدرسية أصدرها طالب مصرى ويسافر فى العام ذاته الى باريس ليؤدى امتحان كلية الحقوق بها ، ثم يعود فيخرج رواية « فتح العرب للأندلس » مظهرا فيها فضـــل الصدق والثبات وقوة العزم والارادة ، وهى الصفات التى كانت أكبر عضد للفتح العربى ، وما ينتهى من شهادة الحقوق فى فرنسا سنة ١٨٩٤ حتى يعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأى العام الأروبى ويتحدث بهذا الى بعض الصحفيين الفرنسيين حديثا يكشف عن

ذكاء وكفاية ووطنية صادقة ، ويثير اعجاب الفرنسيين بالنبوغ المصرى .

ويعود الشاب ابن العشرين الى مصر ، معتزما أن يهب حياته كلها للجهاد فى سبيل وطنه ، مصطحبا معه فى عودته عددا كبيرا من الكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم فما يستقر به المقام حتى يكب على هذه الكتب يدرسها ، ويستوعب مابين دفاتها بذكائه وقوة عزيمته ، ويضع لنفسه برنامجا للعمل اليومى يسير عليه : من السادسة صباحا الى منتصف الليل ، وأظهر مافى هذا البرنامج اليومى أنه منهج رجل يحرص على أن يؤدى حقوق الله والناس عليه ، وأن يعمر كل ساعة من ساعات حياته بعمل نافع مثمر ، وهو المنهج الذى ينصح به الدين وتزكيه المثل العليا فى هذه الحياة .

ومن ذلك التاريخ يبدأ الجهاد الحقيقى للزعيم الشاب فى سبيل تحرير مصر من الاحتلال الأجنبى الذى منيت به منذ سنة ١٨٨٢ وتصبح كل سنة من سنوات حياة هذا الزعيم فصلا حافلا فى كتاب هذا الجهاد الوطنى ، فهو يقضى شطرا من العام فى ربوع الوطن يكتب وينشر ويخطب ، ويقضى الشطر الآخر فى أوربا ينشر الحقائق عن بلده باللغتين الانجليزية والفرنسية ، ويخالط كبار السياسيين ليفيد منهم فى خدمة وطنه .

فمن ذلك أنه نشر فى باريس سنة ١٨٩٥ رسالة بالفرنسية أبان فيها خطر الاحتلال البريطانى على حقوق مصر ثم على المصالح الأوربية عامة ، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها الى كثير من رجال السياسة والصحف الشهيرة فى أوربا فكان لها دوى كبير وجاءه نحو مائة جواب من مشاهير السياسيين فى فرنسا وغيرها يعلنون له فيها شكرهم وتهنئتهم ، وفى هذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن

شعار مصر ومعاملتها لنزلائها من الأجانب (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا) .

وكان مما حرص على الافادة منه فى الحركة الوطنية الأحداث السياسية والاتفاقات الدولية ذات المساس بقضية مصر ، ومن تلك الأحداث التى تردد ذكرها كثيرا فى التاريخ المصرى الحديث : حادثة فاشودة التى قصدت فرنسا من ورائها صد التيار الانجليزى فى باطن افريقية وفتح باب المسألة المصرية برمتها ، ولكنها تخاذلت أخيرا وسلمت بوجهة نظر انجلترا فكان ذلك التخاذل صـــدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية المصرية وأدخلت اليأس على بعض ضعاف القلوب من المصريين ، ولكن مصطفى كامل ثبت فى الميدان وضاعف جهوده وكفاحه ، وقد انتهز فرصة عودته بعدها الى الوطن فى ديسمبر من سنة ١٨٩٨ فألقى خطبة فى القاهرة جعل موضوعها « واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز » وفى هذه الخطبة قال كلمته المشهورة : « لامعنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة » ثم اتجه منذ ذلك التاريخ وجهة عملية فى تربية الأمة فحث على نشر التعليم القومى في أرجاء البلاد لكى تقوى الروح الوطنية فى نفوس الجيل الجديد ويستعد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد ، فكان من أثر ذلك أن أنشئت « مدرسة مصطفى كامل » وظهرت جريدة اللواء فى يناير ١٩٠٠ واتجه الزعيم فى دعوته الى اعتماد الأمة على نفسها ، والى احياء الصناعة ونشر التعليم الصناعى فى مصر والى تخليدذكرى الرجال العاملين من أبناء الوطن والى تنمية الثقـــة فى الأمة ، والى تخريج رجال متحدى الكلمة مثقفي الرأى عارفين بتاريخ الوطن ، معتبرين بعبر حوادثه ، ناهضين به ، جادين فى سبيل اســـعاده ، ودعا الى النهوض باللغة العربية لنشر الثقافة واحياء الآداب وتقـدم الأفكار .

وكان مع دعوته الكبرى الى الجلاء لا يفتأ يدعو الى الدستور ليكون أداة الحكم الصالح في مصر ، وكان يرى أن الدستور يجب أن يكون الأنشودة التى يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال فانه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة

ومن الحوادث آلتى أثارت ثائرته حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ وكانت من أفظع حوادث الاستعمار فى مصر ، وقد حزنت لها الأمة حزنا شديدا ، وفاضت بالاحتجاج عليها أقلام الشعراء والكتاب ، حدثت هذه المأساة ومصطفى كامل اذ ذاك فى أوربا فما بلغه نبؤها حتى اتخذها سلاحا جديدا فى حربه على الاحتلال فشن حملة صحفية كان لها صداها فى انجلترا والعالم المتمدين كله ٠

اتجهت فكرة الأمة فى ذلك العام الى تكريمه عند رجوعه باقامة حفل كبير واهدائه هدية فاخرة وتألفت لذلك لجنة بدعوة من محمد فريد ، فلما علم مصطفى كامل بنبأ هذا الاتجاه كتب الى صديقه فريد كتابا يقول فيه : « انى ما شعرت لحظة واحدة فى حياتى بأنى مستحق لشىء من الالتفات أو الشكر على دفاعى عن حقوق مصر ومطالبتى باستقلالها ومناداتى بوطنية أبنائها لأنى انما أقوم بغرض مقدس ٠٠ » ثم قال : « فخير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى ، لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء ، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون فى الحق لوما ولا عتابا ، ويعملون لمداواة أدوائها ، وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها ٠٠

هكذا كانت حياة مصطفى كامل ، لم تتجاوز فى حساب الزمن أربعة وثلاثين عاما ، ولكنها كانت فى تاريخ مصر الحديث مرحلة

التحول الكبرى فى حريتها واستقلالها وتبوئها المكانة التى تحتلها اليوم بين الأمم ، ولو أن مصطفى كامل بعث اليوم حيا لقر عينـــا بما بلغته الأمة من نضج وتقدم ، وبما حققته بثورتها من عزة وحرية وتعليم وعدالة وقوة ، ولاهتزت نفسه هزة الفخر والاطمئنان فان المقاصد والأهداف التى كانت فى جهاده ، أمانى ومطالب ، أصبحت الآن حقائق ثابتة فى حياة الوطن ، يعتز بها ويفديها وينعم بثمارها المباركة •

الأغانى ــ لأبى الفرج الأصفهانى

تعتز المكتبة العربية بطائفة من أمهات الكتب ، التى أخذت مكانها فى تاريخ الفكر الاسلامى خاصة ، والانسانى عامة ، والتى كانت ــ وستظل ــ معينا خصبا للدارسين والباحثين ، ومن الطبيعى أن تضم هذه المكتبة مراجع مهمة فى علوم القرآن والحديث ، والتشريع ، والأدب واللغة ، والتاريخ الاسلامى ، فتلك فروع من المعرفة نبتت من جوهر الحياة الاسلامية ، التى قامت فى أساسها على عقيدة وكتاب منزل ، والتى ارتبط فيها الدين واللغة ارتباطا لا انفصام له ، ولكن الطريف فى أمر المكتبة العربية أن دائرة نشاطها لم تقتصر على هذه الفروع ، بل تعدتها الى ميادين فى الفن والاجتماع ، تكاد لاتضارعها فيها مكتبة أخرى فى عالم التأليف ، ومن الكتب التى تمثل هذا النوع « كتاب الأغانى » الذى ألفه «أبو الفرج الأصفهانى» منذ ألف سنة ، وهو كتاب « فريد » فى منزعه ، يصورنهضة الغناء والموسيقى فى القرون الاسلامية الأولى ، ويرسم لهذه الصورة اطارا من الشعر والنقد ، والقصص والأنساب ، والتراجم والحياة الاجتماعية ، ويحشد لهذا كله مادة تملأ عشرين مجلدا من المجلدات الكبيرة ، فالكتاب فى الحقيقة موسوعة عربية ، رجع فيها مؤلفها الى مراجع يضيق عنها الحصر ، وخلفها من بعده شاهدا ناطقا بما كان عليه المؤلفون الاسلاميون ــ ابان ازدهار نهضتهم ــ من صبر فى البحث ، واخلاص للعلم ، ووفرة فى التحصيل والانتاج ، وأصالة فى التصنيف والتأليف ، والنظام الذى رسمه المؤلف لكتابه هذا هو أن يجمع فيه

ما أمكنه جمعه من الأغانى العربية قديمهـــا وحديثهـا الى أيامه ، وينسب كل ما أورده منها الى قائل شعره ، وصانع لحنه وطريقته من الايقاع ، ومن اشترك فيه من المغنين ، وما أثر فى شأنه من خبر طريف أو نادرة مستملحة ، أو موازنة أدبية نافعة ، شارحا مالابد من شرحه من غريب اللغة ، ذاكرا السبب الذى من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن ، منصرفا فى سياق حديثه بين الجد والهزل ، مقتبسا من السيرة والأدب ، ومن أيام العرب وقصصهم فى الجاهلية والإسلام ما تجمل بالمتأدبين معرفته ، وتجدر بالناشئين دراسته ولا يرتفع الكهول عن الاقتباس منه ، يورد المؤلف فى بدء كتابه صـــوتا من الأصوات الثلاثة ، التى يقال ان المغنين أجمعوا على اختيارها لهارون الرشيد ، من مائة من الأصوات المشهورة ، وهى أبيـــات لشـــاعر حجازى طوحت به الغربة الى الشام ، وشاقته منازل أهله فى المدينة ، يقول فيها :

القصر فالنخل فالجماء بينهما	أشهى الى القلب من أبواب جيرون
الى البلاط فما حازت قرائنه	دور نزحن عن الفحشاء والهون
قد يكتم الناس أسرارا فأعلمها	ولا ينـــالون حتى الموت مكنونى

ويعرف المؤلف بالأماكن التى ورد ذكرها فى هـــذه الأبيات ، ثم يقول : ان هذا الشعر لشاعر اسمه « أبو قطيفة » ، وأن الغناء فيه « لمعبد » وينتقل الى الشاعر فيذكر نسبه بالتفصيل ، وأنه قال هذا الشعر بعد أن نفاه « ابن الزبير » عن « المدينة » مع من نفى من « بنى أمية » الى الشام ، وهنا يستطرد المؤلف الى التاريخ فيتحدث عن خروج ابن الزبير على بنى أمية ، وما كان من اجتماع أهل المدينة لاخراج بنى أمية عنها ، وما تلا ذلك من وقعة « الحرة » ، بهذا يتضح الجو الذى قيلت فيه الأبيات ، ويدرك القارىء ما تحمله كلماتهـــا من مشاعر وذكريات للشاعر النازح عن دوره ووطنـه ، ويتهيأ لما

سيرويه له المؤلف من أصوات أخرى لهـذا الشاعر ، كان يغنيها المغنون فى تلك الأيام ، لما تفيض به من شوق وحنين من مثل قوله :

وتبـدلت من مسـاكن قومى والقصـور التى بهـا الآطام
كل قصر مشيد ذى أواس يتغنى عـلى ذراه الحمـام
أقر منى السلام انجئت قومى وقليل لهم لـدى السـلام

ويحدثنا المؤلف أن « ابن الزبير » لما بلغه شعر أبى قطيفة هذا قال : حن والله أبو قطيفة ! .. وعليه السلام ورحمة الله : من لقيـه فليخبره أنه آمن فليرجع .

واذ يبلغ المؤلف غايته من أخبار الشاعر ينتقل الى المغنى وهـو « معبد » فيتحدث عنه حديثه عن الشاعر : يذكر نسبه ، ومنزلتـه فى صنعة الغناء ، وينقل عن اسحاق الموصلى أن « معبدا » كان من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة وأحسنهم حلقا ، وكان فحل المغنين وامام أهل المدينة فى الغناء ، وأنه كان استاذا فى هذا الفن « لسلامة القس » وان هذه المغنية المشهورة ندبته عند وفاته بلحن كان قد علمها اياه ، وهو :

قد لعمـرى بت ليـلى كأخى الـداء الوجيـع
ونجى الهـم مـنى بات أدنى مـن ضـجيعى
كلمـا ابصرت ربعـا خاليـا فاضـت دموعى
قد خلا من سـيد كا ن لنـا غـير مضـيع
لا تلمنـا ان خشـعنا أو هممنـا بخشـوع

ويواصل المؤلف الحديث عن « معبد » ومعاصريه من المغنين ، وعن ألحانه المختلفة ، حتى يصل الى واحد منها فى شعر « لعمر بن أبى ربيعة » فينقل الحديث الى شاعر الغزل القرشي فى الاسلام ، والى

ماغنى المغنون فى شعره من أصوات ، والى ماكان له فى المجتمع الحجازى من أحوال وشئون ، ويفيض فى تحليل شعره الغنائى ، وما كان له من تأثير على النفوس ، حتى يستنفد فى ذلك مائتين من الصفحات ، على هذا المنهج يسير « أبو الفرج » فى كتابه : فيترجم لمشاهير شعراء الجاهلية وصدر الاسلام : كزهير والنابغة ، وعمر بن أبى ربيعة ، وجميل ، والفرزدق والأخطل وجرير ، وأبى العتاهية وبشار ، ويذكر كثيرا من شعرهم ، ومن أقوال النقاد فى المفاضلة بينهم ، ويعرف بكبار المغنين والمغنيات ، وأصحاب البراعة فى الموسيقى ، كالغريض وابن سريج ومعبد ، وعزة الميلاء وسلامة القس، وابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ، وزرياب الذى نقل الغناء العربى الى الأندلس ، ويسجل فى حديثه عن الأصوات المختلفة ماكان يستعمل اذ ذاك من الألفاظ الاصلاحية فى الموسيقى والغناء .

لم يكن عجبا ـ اذن ـ أن تحتفل دوائر الثقافة والفن فى القرن الرابع الهجرى بكتاب الأغانى ، وأن يتسابق الأمراء فى شرق الاسلام وغربه فى اقتناء نسخ منه ، ولم يكن عجيبا أن يطنب المؤلفون وأصحاب التراجم فى الثناء عليه ، وأن يقول فيه ابن خلدون فى القرن الثامن الهجرى ، ولعمرى أنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم ، فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ، ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه ، وهو الغاية التى يسمو اليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها ، وأن يقول فيه المؤلف الاوربى الحديث « فارمر » فى كتابه عن « الموسيقى الغربية » ما ترجمته انه كتاب من الطراز الأول فى الانتاج الأدبى للعرب ، وقد بذل مؤلفه فيه معظم حياته ، وان العلم الواسع الذى يعرضه ـ ودع جانبا ما استلزمه من دأب وصبر ـ

ليترك المرء خجلا مما يسمى فى أيامنا أدبا موسيقيا ، فالكتاب بجانب كونه تاريخا للموسيقى العربية من أيام الجاهلية الى القرن العاشر الميلادى—يحتوى ذخيرة من المعلومات عن كل ناحية تقريبا من نواحى الحياة الاجتماعية للعرب ..

ولأهمية هذا الكتاب بادرت مصر الى طبعه سنة ١٨٦٨ ، وعنى بعض المستشرقين منذ أواخر القرن الماضى باعداد فهارس له ، وبترجمة أجزاء منه الى بعض اللغات الأوربية ، ثم جددت مصر العناية به ، فتطوع أحد المثقفين من سراتها سنة ١٩٢٥ بمشروع طبعه من جديد ، ولهذا الكتاب كبير الفضل على البحوث والدراسات العربية الحديثة في العالمين الشرقى والغربى : فعلى مادته الغزيرة اعتمد الباحثون كثيرا فى كتبهم عن شعراء الغزل ، وعن تطور النقد العربى ، وعن تاريخ الموسيقى العربية ، وعن الشعر الغنائى فى الأمصار الاسلامية ، وعن دراسة أحوال الاجتماع والثقافة فى القرون الهجرية الأولى ، ومن هذه المادة استمد الكتاب كثيرا من الهامهم فى كتبهم القصصية والمسرحية ، عن « المجنون وليلى » ، « وقيس ولبنى » وغيرهم من شخصيات الحب المذرى فى أدبنا الاسلامى .

فهل يواتى الحظ نهضتنا الفنية الحديثة — كما واتى سابقتها فى تاريخنا الأول فينتدب لها مؤلف واسع الأفق فى الفن والأدب والاجتماع ، صبور على مشاق الدرس والبحث ، يصل الحاضر بالماضى ويسجل مختلف الأصوات والألحان التى أبدعها سيد درويش ، وسلامة حجازى ، وصبرى ، والجارم ، وشوقى ، وعلى محمود طه ، ورامى ، وأم كلثوم وعبد الوهاب وغيرهم من الموهوبين فى دنيا الفن وممن تطرب لألحانهم نفوس الملايين من الأمم العربية والاسلامية ،

ويترجم لحياتهم ، ويورد آراء النقاد فى فنهم ويصور الـكفاح القومى والتقدم الاجتماعى والثقافى فى المرحلة التى عاشوا فيها ؟ ان لدى المؤرخ الثقافى اليوم من الفرص والعدد مالم يكن لدى مؤرخ العصر العباسى ، وان نهضة الفنون فى القرن العشرين أوسع مجالا ، وأبعد مدى ، وأخصب انتاجا من سابقتها فى القرن العاشر أو هكذا يجب أن تكون ! ..

مقدمة ابن خلدون

من الكتب العربية ذات المكانة فى الثقافة العالميـــة « مقدمة ابن خلدون » التى ألفت فى الربيع الأخير من القرن الثامن الهجرى ـ أى من ستمائة سنة مضت ـ وتضمنت أصول علم جديد لم تكن أوربا قد عرفته بعد ، ذلك هوعلم فلسفة التاريخ ، أما مؤلفهافهوعبدالرحمن ابن خلدون المؤرخ الاسلامى الشهير ، الذى نشأ فى بلاد المغرب ، من أصول واعرق تحدرت من الجزيرة العربية ، وقضى معظم حيـــاته بين العلم والسياسة ، فألف تاريخه الكبير ، وأعان سلاطين الدول المغربية بخبرته وتجاربه ٠ وفى الثلث الاخير من حياته انتقل الى مصر فأقام فى القاهرة مشتغلا بالتدريس والتأليف وتولى فيهـــا قضـاء المالكية ، ومازال بها حتى مات سنة ٨٠٨ من الهجرة ٠

ولهذا المؤلف مكانة خاصة عندنا نحن المصريين ٠ فهو ـ الى جانب الروابط الاسلامية والعربية والثقافية التى تربطنا به وتجعلنا نعتز بعبقريته وسبقه فى ميدان الكشف العلمى ـ رجل أحب مصر وأحبته وتمتع باحترام أهل العلم وطـــلابه من المصريين فى أيامه ، وتغنى بمحاسن مصر وعمرانها ومعارفها فى كتاب عرف فيه بنفسه وبحياته : فوصف القاهرة بأنها حضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الامم وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ، وان القصور والاواوين ، والخوانق والمدارس تختال بآفاقها وان علماءها يضيئون كالبدور والـــكواكب وانها واقعة على شاطىء النيل يتعهدها بالرى ، ويفيض عليها بالثمرات والخيرات ، وان سككها تموج بالمارة ، واسواقها تزخر بالنعم ، وانها بلغت شأوا بعيدا فى العمران واتساع الاحوال حتى كان علماء المغرب

الذين يزورونها يقولون : « من لم ير القاهرة لم يعرف عز الاســــلام
والى جانب هذه الوثيقة الخالدة التى ســـطرها قلم ابن خلدون عن
وطننا مصر ، كان لكتابه « المقدمة » الذى نتحدث عنه اليوم أثر واضح
فى ثقافتنا وتفكيرنا الحديث : فقد أخذت المقدمة مكانها بـــين كتب
النهضة المصرية والعربية ومصادرهما منذ النصف الثانى من القرن
التاسع عشر ، وقد تربى على اسلوبها كثير من كبار مفكرينا ومصلحينا
وافاد منها جماعة من مؤلفينا وباحثينا ، ووجد فيها كتاب السياسة
والاجتماع والادب عندنا مادة لاتنفذ عن العمران البشرى واحواله ٠

وقد شغل بالمقدمة بعض باحثينا فقاموا بدراسات عليها باللغـــة
العربية وباللغات الأجنبية ، وحرصت جامعاتنـــا أن تجعلها من مقروء
الشباب فى مطالعاته العربية ، وأن توجه نظرة الى ماجمعت من حقائق
الاجتماع ومن رصانة الاسلوب الكتابى ٠

نظر ابن خلدون فى علم التاريخ وفى المؤلفات التاريخية الى أيامه ،
فوجد أن لهذا العلم ظاهرا وباطنا : فهو من ظاهره مجرد تتبع أخبار
الايام والدول السابقة ، ولكنه فى باطنه نظر « وتحقيق » وتعليل ٠
فالمؤرخ الذى يعتمد فى رواية أخباره على مجرد النقل ــ غير محتكم الى
قواعد السياسة ، وطبيعة العمران واحوال الاجتماع ــ ليس مؤرخا
بالمعنى العلمى الصحيح ، ولا يمكن أن يوثق بمادته ، وانما المؤرخ
الحق من أحاط بطبائع الموجودات واخلاف الامم والبقاع والأزمان ،
والاخلاق والموائد والمذاهب ، ومن كان مستوعبا لاسباب كل حادث
واقفا على أصول كل خبر ٠

وبعبارة أخرى لابد للروايات التاريخية من قانون يميز حقها من
باطلها ، وقد أغفل الأقدمون البحث عن هذا القانون ، ولكن « ابن
خلدون » جد فى طلبه حتى اهتدى اليه من طريق النظر فى الاجتماع
البشرى وتمييز مايلحقه من الاحوال بمقتضى طبعه ، ومايلحقه من
الاحوال العارضة التى لايعتمد بها ، ثم مالايمكن أن يلحقه أصلا ٠

وصل ابن خلدون - اذن - الى معيار علمى تقاس به صحة التاريخ وتفسرعلى ضوئه ظواهره ، وهو يعجب من أن السابقين لم يتجهوا هذا الاتجاه من قبل ٠ والمسألة فى نظره لاتعدو احدى اثنتين : أما أنهم غفلوا عن هذا الغرض - وذلك احتمال بعيد واما انهم كتبوا فيه واستوفوه ، ولكن كتابتهم لم تصل الينا ، فالعلوم كثيرة ، والحكماء فى النوع الانسانى متعددون ولم يصل الينا من العلوم أكثر مما وصل ٠

على أن ابن خلدون يعطى الأمانة العلمية حقها ، اذ يعترف أن بعض مسائل علم العمران البشرى قد تجرى عرضا فى دراسات العلوم الاخرى كالاصول والفقه مثلا ، وربما وقع الينا القليل من مسائله فى كلمات متفرقة لحكماء الخليقة ، وفى كتا بالسياسة المنسوب لأرسطو جزء صالح منه ، وكذلك فى كتاب ابن المقفع ٠ وقد حوم حول هذا الموضوع « القاضى أبو بكر الطرطوشى » فى كتابه « سراج الملوك » ولكن ايراد هذه النبذ شيء ، والوصول الى نظام علمى لتماسك الحلقات شيء آخر ٠

يبدأ ابن خلدون مقدمته بالنقطة الاولى فى العمران البشرى : وهى أن الانسان مدنى بطبعه ، أى لابد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاح الحكماء ٠٠ ذلك أن الله قد خلق الانسان على صورة لايستطيع أن يستقل معها بجميع حاجاته ، من غذاء يقيم أوده ، ومن دفاع عن نفسه ضد الحيوان المفترس ٠ ولابد فى هذا من اجتماع القدر الكثير من بنى الانسان ٠ ولكى يثمر هذا الاجتماع ويتم العمران لابد من وازع يدفع بعض الناس عن بعض ، لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم - اذن فحاجة بنى الانسان الى الحاكم حاجة طبيعية أيضا ، واذ ينتهى ابن خلدون من تقرير هذه المبادىء الاولى ينتقل الى وصف الجزء المعمور من الارض ، وبيان خصائصه البشرية والحيوانية والنباتية والطبيعية ، واختلاف أقاليمه فى هذا ، وما يترتب على ذلك من اختلاف فى ألوان

البشر وأخلاقهم وعاداتهم وصنائهم ، وما يعرض لهم من البـــداوة والحضارة ، ومايمتاز به أهل البدو واهل الحضر فى طباعهم واحوالهم وعصبياتهم ، وما يحدث لهم من أحوال الملك والمنافسة والتغلب وهنا تصادفنا الاحكام العامة التى يرددها كثير من الناس والكتاب نقلا عن ابن خلدون من مثل قوله :

ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر احواله وعوائده ، وقوله : « ان الامة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع اليها الفناء » و « أن الدولة لها أعمـــار طبيعيـــة كما للاشخاص » و « ان الظلم مؤذن بخراب العمران » ٠

ويحدثنا ابن خلدون عن النبوة والخـــلافة والامامة ، وعن مناصب الحكم من سلطان ووزارة وحجابة ، وعن الحروب ومذاهب الامم فى ترتيبها وعن حباية الاموال ونظامها ٠ وحين يصل الى سياسة الامم يقسمها الى نوعين : سياسة شرعية وسياسة عقلية ثم يصف السياسة الاسلامية بأن قوانينها مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين فى الاجتماع طبيعية ، ويورد فى هذا المقام نصا مشهورا فى الادب الاسلامى ذلك هو الكتاب الذى كتبه «طاهر بن الحسين» لابنه عبد الله ابن طاهر » لما ولاه المأمون لرقة ومصر واوصاه فيه بجميع مايحتاج اليه فى دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياســـية الشرعية ، وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم ، بما لايستغنى عنه ملك ولا سوقة ٠

وفى النصف الثانى من المقدمة قسمان كبيران : أحدهما اقتصادى فى المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ، ومايعرض فى ذلك كله من الاحوال ، والثانى ثقافى فى اصناف العلوم الواقعة فى العمران فى عهد المؤلف ٠ وهذا القسم الاخير عظيم الاهمية لطلاب الدراسات الاسلامية والعربية اذ يعرض فيه المؤلف تاريخ صنفى العلوم المعروفة

اذ ذاك من نقلية وعقلية . ويذكر أشهر رجالها ودراستها ، ويؤرخ لتطور العلوم العقلية عند الامم القديمة كالفرس واليونان والمصريين ، ويذكر صنيع المسلمين فى ترجمة التراث اليونانى وما عدلوا فيه من أوضاع أو أضافوا اليه ، ثم يتناول طريق التأليف والتدريس فى عصره بالنقد ، ويقارن بين مناهج الأمصار الاسلامية فى التعليم ومكان القرآن من نظام كل عصر ، وينعى على المؤلفين مادرجوا عليه من تأليف المختصرات المخلة بالتعليم ، وعلى المدرسين جهلهم بطرق التدريس ، واهتمامهم بتسحن اذهان الطلاب بالمعلومات التى تضمنتها كتب الشرح والتنبيهات . وينصح بأن يكون تلقين العلوم للمتعلمين على التدريج وأن يراعى فيه استعدادهم وقوة عقولهم .

هذه نظرات سريعة فى مقدمة ابن خلدون ، ذلك المرجع العربى الخالد ، الذى عالج قضايا الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية وفلسفة التاريخ والحضارة على طريقة منظمة ، تبحث الاصول والقواعد وتفرع عليها الفروع والظواهر ، وتربط بين المسببات وأسبابها ، والنتائج ومقدماتها ، وتؤلف من كل هذا اتجاها جديدا لدراسة العمران البشرى يضع أساسه عالم عربى مسلم ، ويسجل التاريخ بفضله بابا من أبواب السبق الفكرى للحضارة العربية والاسلامية .

الاحياء ـ للامام الغزالى

من المؤلفين المسلمين الذين يجلهم الشرق والغرب ، ويعرف فضلهم المسلم وغير المسلم من الباحثين ، ويسجل لهم التاريخ أثرهم الخالد فى الحضارة ، الامام « ابو حامد الغزالى » الذى نشأ فى خرسان فى القرن الخامس الهجرى ، ودرس فى المدرسة النظامية ببغداد ، وطوف فى سوريا وفلسطين والحجاز ومصر ، ومات فى بلده سنة ٥٠٥ من الهجرة مخلفا وراءه ثروة علمية ضخمة ، أودعها مائة وعشرين من الكتب ، لاتزال ـ وستظل ـ محل عناية العلماء والدارسين ٠

شغل هذا العالم الاسلامى الممتاز اذهان العلماء فى كثير من البلاد ، فألف فيه ـ أو ترجم عنه ـ الانجليزى والأمريكى والألماني والهولندى والايرانى والمصرى وغيرهم ، وكتبت عنه المقالات فى الموسوعات ، وقدمت البحوث للمؤتمرات الدولية ، وعقدت الموازنات بين آرائه وآراء المشهورين من الفلاسفة والمتصوفة والقديسين ٠

فهو ـ اذن ـ شخصية عالمية بكل معانى الكلمة ، وله مكانة بين الخالدين من بناة المعرفة الانسانية ، وللحضارة الاسلامية أن تعتز به وتعد تراثه العلمى بين أمجادها الرفيعة الفاخرة ٠

والصفة المميزة للغزالى انه لم يكن فقيها فحسب ، ولا مجرد عالم بالتصوف أو الفلسفة أو الاخلاق أو الاصول أو المنطق أو التربية ، بل وفق بين كل اولئك فى نظام فكرى منسجم العناصر متماسك الحلقات ، جامع بين الظاهر والباطن ، والشريعة والحقيقة ، والعلم

والعمل ، والفيوض الكسبيةواللدنية ، وقدأودع هذا النظام الشامل كتابا من كتبه ، قليل النظير فى بابه ، هو كتابه «احياء علوم الدين» وهو موضوع حديثنا •

ولن نحاول فى هذا الحديث أن نلخص مادة الكتاب ، فهو فى الحقيقة دائرة معارف فى الدين الاسلامى واسرار تشريعية ، ولكنا سنقصر أنفسنا على ايضاح المقاصد التى رمى المؤلف الى ابرازها فى كتابه ، وبيان الطريق الى الافادة من هذا الكتاب فيما نحاول من تحقيق الحياة الاسلامية الفاضلة •

والظاهر أن تطواف الغزالى فى البلاد الاسلامية المختلفة فى عصره اطلعه على الكثير من احوالها ، وبصره بوجود النقص فى حياة مجتمعاتنا : من قصور عن ادراك اسرار الدين ، وتقصير فى اتباع تعاليمه والتخلق بمثله وآدابه : فقد شغل أهل العلم اذ ذاك بالقشور عن اللباب ، وأصبح العلم عند الكثيرين منهم براعة فى فتوى تستعين بها القضاة ، او مهارة فى جدل يتذرع بها طالب المباهاة الى الغلبة ، أو سجعامزخرفا يتوسل به الواعظ الى استدراج العوام ، وقنع الناس من العبادات برسومها الظاهرة ، واهملوا ماحض عليه الدين من آداب النفس وأصول الاجتماع ، لذلك كان لابد من كتاب شامل يحيى علوم الدين ، ويعيدتقريرها ، ويصف أدواء القلوب والأرواح ، ويلتمس لها الدواء ، ويضع بين يدى كل مسلم منهجا لحياة اسلامية فاضلة ، يتحقق فيها خلوص العقيدة وصحة المعرفة وصلاح العمل ، ومن أولى بتأليف هذا الكتاب من عالم درس الفقه الاسلامى وأصوله دراسة مستفيضة ، وحذق قضايا الفلسفة التى بلغت نضجها اذ ذاك على يد الفارابى وابن سينا وابن رشيد ، وأحاط بالتصوف علما وعملا وصفى نفسه بالزهد فى الدنيا فترة من حياته استعمل فيها الشك وسيلة الى اليقين ، والتأمل طريقا الى المعرفة الربانية •

على هذا الاساس تحددت مقاصد الغزالى فى كتابه « الاحياء » : فتمثل المعرفة الدينية التى يستقيم بها نظام الحياة فى أربعة ارباع ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات • وهو يصدر ببحث العلم الذى جعل الاسـلام طلبه فريضـة على كل مسلم ومسلمة ،فيسوق من الآيات والاحاديث واقوال السلف ماينبىء عن فضل العلماء ، من مثل قوله تعالى :

(يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الانبياء » وقول ابن عباس رضى الله عنه : خير سليمان ابن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم فاعطى المال والملك معه » •

والغزالى لا يكتفى فى اثبات فضيلة العلم والتعلم والتعليم بايراد النصوص ، بل يناقش الموضوع مناقشة عقلية فيبين أن العلم فاضل لانه لذيذ فى ذاته ، وانه فاضل لكونه وسيلة لصلاح الدنيا وسعادة الآخرة ، والعلوم كلهامطلوبةلهذا الغرض ، سواءمنها ماكان ميدانه الحرف والصناعات ،وماكان ميدانه سياسة الجماعة وتهذيب النفوس ، وماكان ميدانه الفقه بأصول العقيدة وشرائع العبادة ، ويفيض المؤلف هنا افاضة نافعـة فى آداب التعلم والتعليم ، وفى مضـار التعاليم والرياء والجدل وفى بيان شرف العقل وحقيقته وتفاوت الناس فيه •

أما العقائد فقـد أفاض الغزالى فى قواعدها وأسرارها افاضـة ملهمة : فجلى عقيدة التوحيد ، وماتتضمن من تنزيه الله فى ذاته وافعاله والتأمل فى محاسن اوصافه التى لايدركها الا من القى السمع وهـو شهيد ، وتكشف مدلول الاقرار برسالة النبى العربى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتصديقه فى جميع ماأخبر عنه من أمور الدنيا والآخـرة ونصح أن تقدم هـذه العقيدة الى الصبى فى أول نشأته ليحفظهـا حفظا ، ثم يتدرج مع نمو عقله وسنه من الحفظ الى الفهم ، ثم الاعتقاد

والتصديق ، فان من فضل الله سبحانه على قلب الانسان ان شرحه فى أول نشوة للايمان من غير حاجة الى حجة وبرهان ·

وانتقل الغزالى الى الطهارة ـ التى هى مقدمة الصلاة ـ فبين أن لها أربع مراتب : الأولى تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الفضلات ، والثانية تطهير الجوار عن الجرائم والآثام ، والثالثة تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرزائل الممقوتة ، والرابعة تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهذه طهارة الأنبياء والصديقين ، وهذا التقسيم نموذج من طريقة الغزالى فى معالجة الاوضاع والشعائر الدينية ، فهو يبدؤها من الظاهر ، ثم يسير بها تدريجيا الى الباطن ، ناقلا قارئه معه ـ فى لطف وبراعة ـ من ميدان الفقه الى ميدان التصوف ·

وعلى هذا النظام يسير مؤلفنا فى أبواب الصلاة والصيام والزكاة والحج والدعاء وتلاوة القرآن ، معطيا الضرورى من الاحكام الفقهية ، دون خوض فى التفاصيل ، موجها نظر المسلم الى مافى هذه الابواب من رياضة النفس ومعارج القرب الى الله ·

وفى الربع الثانى من الكتاب ـ وهو ربع العادات ـ يعطينا الغزالى صورة من الآداب والسنن الاجتماعية التى ينبغى أن تسود فى المجتمع المسلم لتستقيم حياته على المنهج العام الذى رسمه الاسلام · وهذه فيما أعلم أو فى صورة فى الموضوع يمكن أن نظفر بها فى أدبنا القومى : فهى تتناول آداب الأكل والزيارة والضيافة ، وآداب الزواج وما يتصل به من حسن المعاشرة وحقوق الزوجية ، ثم آداب الكسب والمعاش والمعاملات بين الناس والحرص على مراعاة حدود الله فى الحلال والحرام وتنظيم العلاقة بين الرعية والراعى ، وآداب الألفة والصحبة بين الناس وحقوق المسلم على أخيه من رحم وجوار ونصح وغيرها · ويتصل بهذا الباب موضوع الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو موضوع ذو اهمية خاصة فى الاجتماع الاسلامى ·

أما الربعان الثاني والثالث ـ وقد سماهما الغزالى ربع المهلكات وربع المنجيات ـ فهما ينصبان على الحياة الخلقية والنفسية والروحية ٠ وفيهما تتجلى مقدرة الغزالى على أن يقرب هذه الميادين لاوساط الناس وينقلهم معه الى تلك الآفاق التى يدور الحديث فيها عن احوال النفس والروح والقلب والعقل ، والخلق الحسن والخلق السىء ، ورياضة النفس ومعالجة الأمراض التى تعرض لها : من أثر الشهوات وآفات اللسان وحدة الانفعالات وجمع الرغبات والوقوع فى المعاصى ومحاولة الاقلاع عنها بالتوبة ٠ ويتدرج الغزالى من هذا الى المقامات العليا من الصبر والشكر والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل ، ثم المحبة والشوق والأنس والرضى ، ويقف وقفة خاصة عند النية والاخلاص والصدق واثرها فى نظام الحياة ٠

هذه نظرة سريعة الى مقاصد كتاب الأحياء للغزالى وهى أشبه بنظرة الطائر الذى يمر سريعا فوق مساحة معمورة من الأرض ، فلا يلمح منها الا أبراجها وقممها العالية ، ولا تبدو له رياضها وأنهارها لا كخطوط خضراء أو بيضاء ٠٠ والحقيقة أن كتاب الغزالى فى مجلداته الضخمة كنز من كنوز الثقافة الاسلامية ، ومصدر مهم من مصادر التربية والاخلاق فى حياتنا القومية ٠ وواجبنا نحوه هو واجبنا نحو أمثاله من الكتب العربية الكبرى ، التى تعرضنا لها فى هذه السلسلة من الاحاديث ٠ ذلك انها فى حاجة الى ان تعرض عرضا جديدا على الشباب المسلم ، يبسط فيه اسلوبها ، وتنظم مادتها ، وتحذف منها الاطالات غير الضرورية ، وتناقش آراؤها فى ضوء الاجتماع الحديث ٠ ومهمتنا فى « الأحياء » ستكون أبسط منها فى غيره ، ذلك أنه قريب الاسلوب ، متصل اتصالا مباشرا بنواحى حياتنا الفردية والاجتماعية التى نحياها كل يوم ، ونحس آثارها فى عباداتنا ومعاملاتنا ونوازعنا النفسية والخلقية ٠

مكتبة القرآن

اختص الله الأمة الاسلامية ـ فيما اختصها به من ضروب البر والتكريم ـ بأن أنزل على رسولها كتابا مبينا محفوظا على الأيام ، جمع لها فيه أصول العقيدة الدينية السليمة ، ورسم لها موازين الحياة الانسانية الصالحة ، حكمته أن يجعل هذا الكتاب مصدر ثقافتها ومحور علومها التى عرفت بها بين الأمم • فاذا عدت روائع الكتب التى أثرت فى الحضارات الانسانية عامة ، وافتخرت كل أمة بنصيبها منها ، كان من حق الأمة الاسلامية أن تضع على رأس قائمتها كتابها الأكبر الذى سارت وتسير على هديه مئات الملايين من البشر ، وشاركت وتشارك فى دراساته جهود العلماء من مختلف الأجناس والملل •

والحق أن الذى يتعرض للحديث عن هذا الكتاب يجد نفسه أمام بحر لا ساحل له ، وطود شامخ يصعب مرتقاه : فهو ـ من جهة ـ خاتمة الرسالات التى حملت هدى السماء الى الأرض ، وانى لبشر أن يحيط بأسرار وحى السماء ! وهو ـ من جهة ثانية ـ برهان صدق مكن الله به لدينه وقطع حجة أعدائه ومعارضيه • ومن جهة ثالثة دستور محكم ، قامت على أساسه نهضة فقهية وتشريعية ، واشتقت منه مناهج سلوك وأخلاق وتربية ، ومدارس تصوف وفلسفة • ومن جهة رابعة آية بيان واعجاز ، سنت للأمة العربية طريق البلاغة والفصاحة ، وحفظت لها عبقرية لغتها حية متجددة على مر الأزمان • وكل واحدة من هذه الجهات فتحت أمام الباحثين فى مختلف العصور والبلاد آفاقا فسيحة من التأليف والتصنيف، وأوحت اليهم بدراسات

خصبة مازالت تنمو وتنضج حتى استوت فى النهاية علوما واضحــــة المعالم والحدود ٠

هذا الكتاب الكريم سجل خالد لأحداث الرسالة وكفاحها ، ونشوء الدولة الاسلامية وارساء قواعدها ٠ فعلى هدى نصوصه نستطيع أن نتابع ميلاد هذا الدين منذ أن هتف هاتف السماء بمحمد : (اقرأ بأسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) الى أن بلغ محمد رسالته ، وأدى أمانته ، وأوشك اللحاق بربه وجاء الأمر من السماء للمسلمين يقول (اليــوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) ٠

فى تلك المرحلة الزمنية الحافلة التى غيرت وجه التاريخ كانت آيات هذا الكتاب الكريم تنزل منجمة حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال ٠ وكان يتولى كتابتها للرسول « على بن أبى طالب » و « عثمان بن عفان» فان غابا كتبها « أبى بن كعب » « وزيد بن ثابت » ٠ وتوفى رسول الله وآيات القرآن وسوره مثبته فى الصحف المتفرقة ، وفى صدور الحفاظ من الصحابة ٠ فلما جاء « أبو بكر » أمر بجمع تلك الصحف، فظلت عنده ، حتى انتقلت الى « عمر » ثم الى ابنته « حفصة » فلمــا تولى « عثمان » أخذ الصحف من حفصة وعهد الى جمع من الصحابة:

منهم « زيد بن ثابت » و « عبد الله بن الزبير » و « وسعيد بن العاص» بجمعها فى مصحف ، وكتب منه نسخا وزعت على الأمصار ٠ وهكذا تم فى الاسلام وقبل عهد المطبعة وانتشار الكتابة جمع ، أول كتاب عربى اسلامى ونشره فى الأقطار ، على صورة محفوظة بأمــر الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ٠

هذه العملية الكبرى من الجمع والنشر ، والتى بدأها الرســـول باتخاذ الكتاب لوحيه ، وأتمها الخلفاء والقراء من أصحاب الرسول ، على طريقة دقيقة ، تمثل حلقة مهمة فى أمجاد الاسلام الثقافيـــة ،

وتحقق التوجيه الآلهى الذى تضمنته أول سورة نزلت من القرآن ، وتدل كما قال العلماء دلالة لايتطرق اليها الشك على أن هذا الكتاب المتلو المحفوظ المرسوم فى المصاحف ، هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وتلاه على من فى عصره ثلاثا وعشرين سنة ، وقام به فيالمواقف ، وكتب به الى البلاد ، وتحمله عنه اليها من تابعه ، وظهر الظهور الذى لايشتبه على أحد ، وانتشر فى أرض العرب كلها ثم انتشر فى الأمم المجاورة وفى الأمم البعيدة ، وحفظه الناس وتنقلتبه الرحال وتعلمه الكبير والصغير ، اذ كان عمدة دينهم ، ومادة صلواتهم والمصدر الأول لأحكامهم ، وتناقله خلف عن سـلف ثم مثلهم فى كثرتهم وتوفر دواعيهم على نقله ، حتى انتهى الينا كاملا محفوظا كما أنزل · وهذه من خصوصيات الأمة الاسلامية وشواهد فضـلها عند الله ·

هذا الكتاب المبين يصور لنا منهج الرسالة فى المرحلة المكية : من مناهضة الشرك ، والدعوة للتوحيد ، وتمجيد الله والتسبيح بحمده ، وتوجيه النظر الى آثار قدرتهومظاهر نعمه ، ومجادلة المشركين ،ودعوة أهل الكتاب الى كلمة سواء ، وابراز العظمةفى أحوالالأمم السابقة ، وقصص الأنبياء والرسل ، وفرض الصلاة التى هى عماد الدين ، ثم يصور كيف أخذ المنهج فى المرحلة المدنية صورة جديدة من الجهاد والتنظيم والتشريع : فأذن للمسلمين فى الدفاع المسلح عن أنفسهم ، ومقابلة العدوان بمثله ، وخاضت جماعتهم الناشئة سلسلة من المعارك والملاحم ، نصروا فى الكثير منها بايمانهم وقوة يقينهم وسدادقيادتهم وهزموا فى بعضها حين أهملوا الأخذ بأسباب النصر والاتباع للخطة المرسومة ، وأكمل الله لهم قواعد دينهم من صيام وزكاة وحج ،ووضع لهم نظم معاملاتهم وأحوالهم الشخصية ، وسن لهم مبادىء الحيـاة الأخلاقية الفاضلة ، وأدبهم بأدب الاجتماع فأحسن تأديبهم · كل هذا فى نظم بديع وتأليف عجيب ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ، لايتفاوت ولا يتباين على كثرة الوجوه التى يتصرف

فيها من تقويم وتشريع ، وذكر وقصص ، ومواعظ وأحكام ، ووعد ووعيد ، انما هو أسلوب متناسب فى فصاحته ، بالغ فى تأثيره ، ينفذ الى أعماق الضمائر ويأخذ بمجامع القلوب ، لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ٠

وعلى هذا استقام للمسلمين فى حياة رسولهم كتابهم المشرع لدولتهم، والمنظم لحياتهم ، والموجه لعقولهم وقلوبهم وأذواقهم ٠ فما فارقهم الرسول حتى انتدب أحبارهم للعناية بهذا الكتاب درسا وتفسيرا ، وحتى بدأوا يجندون لفهمه مأثور أدبهم ولغتهم ٠ وما كاد ينتصف القرن الثانى من الهجرة ، وتستعد عبقريتهم للبحث والتأليف ، حتى أخذوا يكتبون الرسائل والكتب فى معانى القرآن ومجازه ، ونظمه وبيانه ، ومحكمه ومتشابهه ، وغريبه ومشكله ٠ ثم آتى تخصصهم العلمى ثماره منذ نهاية القرن الثالث : فألفت الكتب الجامعة فى التفسير والاعجاز ، وظهرت كتب النقد والبيان ، متأثرة بأدب القرآن ، كاشفة عن وجوه بلاغته وجلال نظمه ، وتتابعت جهود المؤلفين المسلمين فى الميادين القرآنية المختلفة ، واتسعت المكتبة الاسلامية فى هذه الميادين اتساعا لم تحظ بمثله مكتبات الأمم الأخرى ٠ وأخذت البلاد الاسلامية فى الشرق والغرب نصيبها من هذه النهضة ، وكان لمصر ومعاهدها وعلمائها فى العصور الوسيطة نصيب موفور منها ، ولا يزال لها فى العصور الحديثة مكان الصدارة فى دراسات القرآن والعلوم الاسلامية التى تفرعت منه ٠

على أن أثر الكتاب الحكيم فى النهضة الفكرية للمسلمين لم يقف عند علوم القرآن وعلوم اللغة والأدب فحسب ، بل كان هو النبراس الذى اهتدى به فلاسفة الاسلام ومتكلموه فى معالجة قضايا الوجود ، وفى مناقشة التراث الفلسفى القديم ، وتعديل اتجاهاته ٠ وكان هو المعين الذى أغترف منه فقهاء المسلمين ومشرعوهم وعلماء الأخلاق والتربية والتصوف من بينهم ٠ وكان ـ وسيظل ـ مصدر قوة

المسلمين فى حياتهم وكفاحهم فى سبيل حرياتهم ، وجهادهم فى نشر مبادىء الخير والحق ، وتوفير الكرامة والعدالة لبنى الانسان على السواء •

والقرآن بعد هذا كله هو الكتاب الاسلامى الأول الذى حرص الغرب فى نهضته الحديثة على أن ينقله الى لغاته ، ويشغل بدرسه • وقد تخصص فيه من الغربيين علماء مشهورون ، كتبوا فى تاريخه ، وفى مذاهب تفسيره ، ونشروا بعض الدراسات الاسلامية القديمة عليه ، واستلهموه كثيراً من وجهات النظر فى بحوثهم التى قاموا بها عن الجبر والاختيار ، والخير والشر ، ونظرة الأديان الى الانسان وصلته بالله ، ومذاهب الاخلاق ونظرياتها المختلفة • وهكذا يتغلغل أثر القرآن فى الفكر والحضارة ، وتشع منه أضواء المعرفة على الشرق والغرب ، ويحس المسلمون بالغبطة الروحية حين يذكرون أن ثقافتهم تفضل الثقافات الأخرى بذلك القبس السماوى الوضاء ، وأن مناهج تربيتهم وتعليمهم تستمد أصولها وتوجيهاتها من كتاب الخالق الحكيم الذى يعلم أسرار النفوس وطبائعها ونزعاتها ، ويعلم مابه صلاحها ومابه فسادها ، وأن تعاليم دينهم التى وضع نظامها ذلك الكتاب قد أثبتت على مر الأيام أنها أقوم غاية وأهدى سبيلا من النظم التى تحاول العقول البشرية الاتفاق عليها والوصول بها الى مايحقق سعادة المجتمع الانسانى •

كتب التراجم والطبقات

للتراث العربى فى ميدان التأليف مزيتان هامتان : الأولى أن تاريخ حياته يتصل اتصالا لا انقطاع فيه مدة ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهو باذن الله مستمر فى هذا الاتصال مابقيت اللغة العربية وما بقى الاسلام ، وهذه صفة لاتتحقق فى كثير من الحضارات الراقية المعاصرة • والمزية الثانية ضخامة مكتبة هذا التراث وغناها وتنوع انتاجها واصالته فى ضروب المعرفة المختلفة • وقد أردنا شواهد من هذه المزية فيما عرضنا من الكتب فى هذه السلسلة من الأحاديث ، والحقيقة أننا فيمانحاول من التعريف بنماذج هذا التراث الفكرى وآثاره فى خدمة الحضارة ، وفيما نقصد اليه من تنبيه الشباب العربى والاسلامى الى أمجاده الخالدة ، نجد أنفسنا أمام ثروة يضيق عنها الحصر ويصعب فيها الاختيار • وقد مر بنا هذا الموقف حين تحدثنا فى حلقة ماضية عن المكتبة القرآنية ، فآثرنا ـ نظرا لتنوعها وخصبها ووفرتها ـ أن نعرضها جملة لاتفصيلا ، وأن نرسم منها للمستمع العربى مجرد اطار عام يستطيع اذا شاء أن يكمل صورته من قراءاته ودراساته •

واليوم نجد أنفسنا فيما يقرب من هذا الموقف حين نتحدث عن المكتبة العربية فى ميدان التراجم والطبقات : فهى مكتبة حافلة تبدأ سلسلتها منذ أواخر القرن الثانى الهجرى أو أوائل الثالث ، وتستمر فى مشرق الاسلام ومغربه ، وفى مراحل تاريخه المتعاقبة ، حتى أيامنا هذه • وهى مكتبة منوعة يتخصص بعضها فى تصنيف طائفة معينة كالشعراء والأدباء ، أو اللغويين والنحاة ، أو المتصوفة والفقهاء أو

غيرهم ، ويأخذ بعضها شكل دوائر المعارف التى تترجم لكل هـــؤلاء الأصناف أو لكثير منهم فى عصر واحد أو عصور متعاقبة · وهـذه المكتبة الخصبة تؤلف جزءا هاما من الذخيرة التى يعتمد عليها دارسو الثقافة العربية والاسلامية اليوم ، ويتســـابق فى نشرها وتحقيقها جهابذة من شرقيين ومستشرقين · ومما يرتفـــع له رأس كل مصرى عزة وارتياحا أن مصر الحديثة تضطلع فى أحياء هذا التراث بـدور كبير ، وانها وشقيقاتها العربية قد أخذن بمقاليد هذه الحركة بعدأن كانت الى عهد قريب حكرا فى أيدى الباحثين الغربيين ·

على أن مما يحتاج الى التصحيح فى تفكيرنا الحاضر موقف بعض مثقفينا من هذا التراث العربى والاسلامى ، فان من هـــؤلاء من لم يتصلوا به اتصالا حقيقيا ، ومن لم تهيىء لهم ظـــروف تخصصهم العلمى الحديث أن يدرسوا تاريخ العلم الانسانى وأن يضعوا الجهود العربية فى مكانها من سلسلة هذا التاريخ ·

وبعد فان من أقدم كتب الطبقات والتراجم فى ميدان الادب العربى كتابين ألفا فى القرن الثالث الهجرى ، وعنى بهما الدارســـــون المصريون عناية مشكورة :أحدهما كتاب « طبقات الشعراء» لابن سلام، وهو كتاب وضع أساس البحث التاريخى والنقدى للشعر العربى ، وصنف شعراء الجاهلية وصدر الاسلام فى طبقات ، تحتوى كل منها أربعة يتقاربون فى المكانة الفنية ، أو تجمعهم بيئة واحدة من البيئات العربية ، أو يشتهرون بفن واحد من فنون الشعر · وقد جمع هذا الكتاب طائفة من المعلومات الأدبية الهامة وحفظ لنا صورة من بدء تطور الذوق النقدى فى المجتمعات العربية الاسلامية ، ومن المقاييس التى كان يستعملها الناقدون اذ ذاك فى الحـــكم على الأدب ، وفى المفاضلة بين شاعر وآخر ·

والكتاب الثانى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة وهو يبـدأ بمقدمة نقدية طريفة ، يناقش فيها قضيتى التكلف والطبع ،والقديم

والجديد ، ويحاول أن يضع لجودة الشعر معايير تقاس بها ، ويترجم لأكثر من مائتين من شعراء الجاهلية وصدر الاسلام ٠

واذ تتطور النهضة التأليفية العربية ، ويتسع العمران الاسلامي ، وتطلع كل بيئة من بيئاته أعلاما من الشعراء والكتاب ، يتجه بعض مؤلفي التراجم الى العناية بأدباء عصرهم في الأقاليم المختلفة مفردين لكل أقليم أو مجموعة متجاورة من الأقاليم قسما من أقسام كتبهم ، ويعتبر أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، وأضع أساس هذا الاتجاه في كتابه « يتيمة الدهر في محاسن أشعار أهل العصر » ٠ فقد عني فيه بجمع الجيد من أشعار المعاصرين له في أصقاع الاسلام المختلفة ، اذ كانت في نظره أجود مما سبقها من أشعار الماضين في الجاهلية والاسلام ٠ فعنده أن أشعار الاسلاميين جاءت أرق من أشعار الجاهلين ، وأن أشعار المحدثين كانت ألطف من أشعار المتقدمين ، وأن أشعار العصريين كانت أجمع لنوادر المحاسن من أشعار سائر المذكورين ، لانتهائها الى أبعد غايات الحسن وبلوغها أقصى نهايات الجودة والظرف ٠ واذا كان المؤلفون من قبله قد سبقوا الى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين ، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم ، وتدوين كلماتهم ، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم ، فقد بقيت محاسن أهل العصر ــ التي معها لذة الجدة وحلاوة قرب العهد ــ غير محصورة في كتاب يضم نشرها ويقيد شواردها ، وهذه هي المهمة التي اضطلع بها في كتاب « اليتيمة » فنصف شعراء العربية في عصره في أربعة أقسام ، خصص الأول منها لشعراء آل حمدان والشام ومصر والمغرب ، وخصص الثاني لشعراء العراق والدولة الديلمية ، والثالث لأهل فارس وجرجان وطبرستان وأصفهان ، والرابع لأهل خراسان وما جاورها من الأقاليم ٠

ثم تتابعت بعد ذلك الكتب على غرار كتاب « اليتيمة » فلم يكد

يخلو قرن من قرون الاسلام من واحد منها يترجم لأعيان عصره في الادب • ومن هذه كتاب ضخم في عشرة مجلدات كبيرة ، ظل الى عهد قريب مخطوطا لايفيد منه الى القلة المنقبة من الباحثين ، حتى تنبهت مصر وشقيقاتها العربية فى السنوات الأخيرة الى ضرورة العناية بتحقيقه ونشره ، ذلك هو كتاب « جريدة القصر وجريدة العصر » من تأليف العماد الأصفهانى الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، والذى اتصل بالايوبيين وبالقاضى الفاضل أمام الصناعة الادبية فى أيامهم • وقد نشرت مصر القسم الخاص بها فى مجلدين ، وأخرجت دمشق المجلد الأول من القسم الخاص بسوريا ، ويقوم المجمع العلمى العراقى على نشر القسم الخاص بالعراق • ويبدو أن المؤلف كان معجبا بمصر وأدبائها وعلمائها اعجابا كبيرا ، وان سوق الأدب فى المدن المصرية المختلفة فى أيامه كانت رائجة ، وأن شخصية مصر الأدبية اذ ذاك كانت قد وصلت الى درجة ظاهرة من النمو والوضوح ، يقول المؤلف فى مستهل القسم الرابع من كتابه : « وأنا مبتدىء بالديار المصرية لامتزاجى بأهلها ، وابتهاجى بفضلها ومقامى فيها •• ومصر مربع الفضلاء، ومرتع النبلاء ، ومطلع البدور وموضع الصدور ، وأهلها أذكياء يبعد من أقوالهم وأعمالهم العى والعياء • »

ومما له دلالته ومغزاه أن هذه التحية الجميلة التى يوجهها المؤلف الأصفهانى لمصر فى القرن السادس الهجرى ، تترددفى كثيرمن أمهات الكتب العربية التى ألفها علماء من المشرق والمغرب الاسلاميين وقد مرت بنا صورة منها فى هذه الأحاديث نقلناها عن منشىء علم العمران وفلسفة التاريخ عبد الرحمن بن خلدون • وها نحن أولاء فى نهضتنا الحديثة نسمعها صادقة مخلصة من زعماء الأمم الشقيقة ومفكريها ، فتشتد بها عزائمنا ، وتزداد ارادتنا قوة على قوة ونحس أن عليناللعروبة والاسلام تبعات لابد لنا أن ننهض بها، وأن لوطننا تراثا عريقا من حقه علينا أن نحييه ونحافظ عليه •

هذه الأمثلة التي ذكرناها تمثل ثلاثة أنواع من كتب الأدب :
أحدها تصنيف الشعراء القدامى الى طبقات ، والثانى التعريف بالشعراء والترجمة لهم دون تصنيف • والثالث آفراد كل بيئة من البيئات الكبرى المعاصرة للمؤلف بقسم من أقسام الكتاب ونضيف الآن اليها نوعين آخرين : أحدهما يمثل عناية المؤلف ببيئته ومن فيها من أعلام الأدباء ، والثانى يصور الاتجاه الموسوعى أو المعجمى فى التعريف بالسابقين من الأدباء والعلماء الى عصر المؤلف • أما الأول فيتمثل فى كتاب « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الأندلسى الذى عاش فى القرن السادس الهجرى ، والذى دفعه الى تأليفه كتابه هذا حرصه على أن ينشر مفاخر وطنه « الأندلس » ويسجل رقيه فى الأدب والعلم ، ويثبت أن فى مؤلفى الغرب الاسلامى من يستطيعون الجرى مع مؤلف اليتيمة فى مضمار واحد ، وقد كان لمصر أيضا فضل السبق الى العناية بتحقيق هذا الكتاب ونشره ، وهو الآن يسير رويدا الى التمام •
وأما الثانى فيتمثل فى كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى الذى عاش فى القرنين السادس والسابع ، وقد سبقنا الغرب الى نشر هذا الكتاب ثم أعادت مصر نشره فى عشرين مجلدا ، فسدت به ركنا مهما فى المكتبة العربية ، ووضعت أمام الباحثين المحدثين سجلا شاملا لأخبار المشهورين من اللغويين والنحويين ، والنسابين والقراء ، والاخباريين والكتاب وأصحاب الرسائل ومصنفى الأدب ، ممثلين لمراكز الثقافة العربية من البصرة وبغداد الى الحجاز ومصر والمغرب وغيرها • وقد حوى هذا الكتاب ترجمة ألف أو يزيد من هؤلاء الأعلام ، وأشار الى مايربو على خمسة آلاف من الكتب والرسائل ، ومما يذكر فى معرض الانصاف للحضارة الاسلامية ولما اتسمه به من سماحة وحرية ، ولما هيأته من فرص التثقيف لكل من أظلته رايتها ، أن مؤلف هذه الموسوعة الضخمة كان فى نشأته فتى روميا أسر من بلاده صغيرا ، وابتاعه ببغداد

رجل تاجر وجعله فى الكتاب لينتفع به فى ضبط تجارته • فلما شدا الفتى وترعرع ، وقرأ شيئا من اللغة والأدب أعتقه الرجل ، فاستمر فى تثقيف نفسه ، واشتغل بتجارة الكتب وتنقل فى عواصم الاسلام من دمشق وحلب الى الموصل ومرو وخوارزم ، وساعده هذا التجوال فى البلاد ، والمخالطة للناس ، على جمع ما استطاع من الأخبار والمعارف بالرواية والمشافهة والاطلاع على مختلف المصنفات والكتب • وقد سجل فى بعض رسائله وصفا مفصلا لطبيعة بعض البلاد التى جابها ولما تقلب عليه من الشئون والاحوال ، كمثل قولة عن نفسه وعن نهمه للمعرفة أثناء مقامه بمرو من أعمال خراسان ، هكذا كانت روح الحرص على العلم فى الحضارة الاسلامية ، أيام كانت ممتدة الأطراف واسعة الأرجاء ، وهكذا كانت فرص طالب المعرفة ، أينما سار وجد كتبا وعلماء ، ولقى أهلا بأهل وجيرانا بجيران •

كتب الرحلات والأسفار

من الظواهر البارزة فى تاريخ الفكر الاسلامى أن كثيرا من المؤلفين المسلمين خلال العصور أولعوا بالتجوال فى البلاد ، وعنوا بتدوين ماشاهدوه فى رحلاتهم وأسفارهم ، وخلفوا لنا فى هذه الناحية كتبا متنوعة تجمع بين الطرافة والمتعة من جهة ،والفائدة العلمية والاجتماعية من جهة أخرى ، ويبدو أن هذه الظاهرة منبعثة من تعاليم الدين ، ومن طبيعة العمران الاسلامى فى عصور ازدهاره ، فالاسلام قد ندب الى السير فى الأرض ، والنظر فى الملكوت ، والاعتبار بمصاير الأمم السابقة ، وجعل زيارة البيت الحرام فى مكة فرضا على كل مسلم قادر حيثما كانت داره وموطنه، وحض على طلب العلم ولو فى أقصى أطراف الأرض ، ورغب فى التجارة والسعى فى طلب الرزق ، وعد الهجرة فى سبيل الله عملا من أفضل الأعمال وأحبها الى الله . وساعد اتساع رقعة لاسلام وازدهار الثقافة الاسلامية على تحقيق هذه التعاليم : فقد كان طالب العلم ينشأ فى بخارى مثلا ، ثم تدفعه رغبته فى الاستزادة من المعرفة الى أن يضرب فى آفاق الأرض الى العراق والشام والحجاز ومصر والمغرب ، وكان العالم المسلم تذيع شهرته فى وطنه فى الشرق فلا يلبث أهل الأندلس أن يتطلعوا الى لقائه ويبعثوا فى طلبه ، ويجزلوا له الصلات ، لقاء كتاب نافع يؤلفه ، أو أمالى يمليها فى دروس عامة . وكان الحاج المغربى يبتدىء رحلته من وطنه الى الأماكن المقدسة ، راكبا البحر أو معتسفا البر ثم تنزع به نوازع الاطلاع والمشاهدة فيخترق القارات ،ويذهب

فى الأرض شمالا وجنوبا ، هازئا بالصعاب متحملا أقسى مايمكن لبشر أن يتحمله من متاعب السفر ومخاوف الطريق وأخطار الظواهر الطبيعية ، عالما أنه أينما ذهب حل فى بقعة من دار الاسلام ، ووجد مأوى للغرباء ، أو بيتا من بيوت الضيافة ، أو مدرسة من مدارس العلم ، أو مسجدا من المساجد الكبرى ، أو مشهدا من المشاهد المنتشرة فى البلاد الاسلامية ، أو زاوية من زوايا المتصوفة ، يقضى فى احداها أياما ثم يزود للمرحلة التالية من أسفاره بما يحتاج من طعام وكساء • ولكن الشىء الجدير بالتنويه فى أمر هذه الظاهرة أن كثيرا من رحالة المسلمين فى تلك العصور تركوا لمن بعدهم سجلا وافيا لوقائع رحلاتهم وعجائب مشاهداتهم : فوصفوا الأقاليم والبلاد التى زاروها ، والآثار والمشاهد التى مروا بها ، والعادات والتقاليد التى استرعت انتباههم فى مختلف البلاد ، والعلماء والصالحين الذين لقوهم هنا وهناك • ثم أضاف بعضهم الى هذا كله معلومات احصائية ، أو نقدا اجتماعيا ، أو ملاحظات فى ميادين الاقتصاد أو الصناعة أو الزراعة أو غيرها •

كل ذلك قد ضمنوه كتبا حفظتها الأيام ، وشغل العلماء الحديثون بنشرها ودرسها وترجمتها ؛ واشترك الغرب والشرق فى العناية بها والافادة منها ، وأبرز الدارسون دلالتها على عبقرية الفكر الاسلامى ، وأثرها فى خدمة الحضارة الانسانية •

وهذه الكتب متنوعة المنازع : منها ماتجده فى ميدان التاريخ والجغرافيا ، ومنها ماهو أدخل فى باب الرحلات والأسفار ،ومنها ما يأخذ شكل المغامرات الخيالية والقصص المخترع •

فمن المؤلفين الذين عبروا عن الروح الاسلامى فى التجوال والبحث وراء المعرفة « على بن الحسين المسعودى » الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ، والذى خلف لنا فيما خلف من تراث

علمى كتابا معروف المكانة فى التاريخ ، سماه : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، يصف فى مقدمته ماغمر قلبه من تقاذف الأسفار وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر مستعلما بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفا خواص الأقاليم بالمعاينة ، كقطعة بلاد السند والزنج والصين ، وتقحمه الشرق والغرب ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بوسائط ارمينية وأذربيجان ، وطورا بالعراق وطورا بالشام ، سائرا فى الآفاق سرى الشمس فى الاشراق ٠٠٠ الى أن يقول « وليس من لزم جهة وطنه ، وقنع بما وصل اليه من الأخبار عن أقليمه ، كمن قسم عمره على قطع الأقطار ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه ، واثارة كل نفيس من مكمنه ٠٠ »

أما الكتابان العربيان اللذان اشتهرا شهرة واسعة بين كتب الرحلات فى الآداب العالمية ، فهما : رحلة « ابن جبير » ورحلة ابن بطوطة : فالأولى هى الرحلة التى قام بها ــ فىالقرن السادس الهجرى ــ الحاج الأندلسى « محمد بن أحمد بن جبير » وفيها زار مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية ، مستغرقا فى ذلك عامين وبضعة أشهر ٠ وقد وصف فى رحلته تلك أهوال السفر فى البحر الأبيض وصفا واقعيا مؤثرا ، ثم أعطانا صورة مما كان يحدث فى تلك العصور من اجراءات تفتيش الحجاج عند نزولهم بالاسكندرية ٠ والمؤلف ينقد هذه الاجراءات نقدا مرا ، ويؤكدأنها من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف«بصلاح الدين» وأنه لو علم بها ــ وهو المشهور بالعدل وايثار الرفق ــ لأزالذلك وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة ٠ أما الاسكندرية فقد أعجب بها « ابن جبير » اعجابا كبيرا ، ومن أعظم ماشاهده من عجائبها المنار الذى يظهر من البحر على أزيد من سبعين ميلا ٠ ومن مناقب هذا البلد ومفاخره المدارس والملاجىء الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية٠، فيلقى كل واحد منهممسكنا

يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، ومرتبا يقوم به فى جميع أحواله • ولقد اتسع اعتناء السلطان بهؤلاءالغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها حتى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مستشفى لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء •

والرحلة الثانية المشهورة ، هى التى قام بها « محمدبن بطوطة الطنجى » فى القرن الثامن الهجرى ، معتمدا حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسوم عليه السلام ، منفردا ــ كما يقول ــ عن رفيق يأنس بصحبته أو ركب يكون في جملته •• فارق هذا الرجـــل وطنه شابا ، ولكنه ظل حول ثمانية وعشرين عاما فى أســـفار متصلة ، جاب فيها الأقطار ، وأدى فريضة الحج مـــرارا ، وزار فيمـــا زار من الأقاليم بـــلاد المغرب ومصر والحجـــاز واليمن والصومالوالسودان وفلسطين والشام والعراقوايران والأناضول وشبه جزيرة القرم والقوقاز والقسطنطينية وخوارزم وبخارى وكابل وبلاد الهند وبلاد الصين • وقد قدر العلماء المسافة التى قطعهـــا فى أسفاره بخمسة وسبعين الف ميل • وابن بطوطة ــ مثل سلفه ابن جبير يعجب بمصر ومدنها ولا سيما مدينة الاسكندرية • ويصف رحلته على النيل الى القاهرة ثم الى أسوان ، مابين مـــدائن وقرى منتظمة متصل بعضـــها ببعض ، ويقف عند كثير من هــــذه الاماكن وقفات كاشفة تعرف بخصائصها وحاصلاتها وعلمائهـــا وعادات أهلها ومابها من قديم المشاهد والآثار •

ومن الأقسام الطريفة فى رحلة ابن بطوطة وصفه لبلاد الصين ومدنها وخيراتها وفنونها وصناعاتها وعادات أهلها وتفصـــيله لأحوال المسلمين بها • ولهذه المعلومات عندنا فى الوقت الحـــاضر أهمية خاصة : فقد ازدادت صلاتنا السياسية بتلك القارةالشرقية

الواسعة وأخذ التبادل الثقافى والفنى والاقتصادى بيننا وبينهـا ينمو نموا مطردا ، ووجدت دراسة لغتها وأدبها مـكانا فى بعض معاهدنا ، كما وجد علماؤنا فى جامعاتها ومدارسها ميدانا جـديدا لجهودهم العلمية ٠

هذه لمحات خاطفة مما سجله ابن بطوطة فى كتابه من صورالحياة فى البلاد المختلفة من أقصى الغرب من أفريقية الى أقصى الشرق من بلاد الصين وهى صور على جانب كبير من الأهمية ففيها للذهن مادة خصبة وللدراسات الاجتماعية شواهد صادقة وللخيال متعـة بالغـة ، وقد أحيـا عـالم من علمائنـا المعـاصرين ذكرى هـذه الـرحلة بـرحلة علميـة جال فيهـا فى المحيط الهنـدى وسـجل مشـاهداته فى كتاب أسماه « سـندباد عصرى » ٠ ثم عاد بعد ذلك الى كتب الأسفار والرحلات التى ألفهـا العرب فيما بين القرنين الثالث والثامن الهجـريين ، ففحصهـا ، وحاول أن يحدد مركزها فى تطور الجغرافيا البحرية ، وأن يتعـرف ماتصفه من أحياء مائية ، وظواهر بحرية وجوية ، وأودع ثمـار دراساته فيها كتابا جعل عنوانه « السندباد القديم » وفى المكتبـة العربية الحديثة كتب أخرى عن هذه الرحلات ، منها : كتاب « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » وهو سفر نافع لمن يريد أن يكون فكرة صالحة عن هذا التراث الاسلامى النفيس ٠ ويعجبنى من مؤلفه ما صدر به كتابه من أبيات صادقة فى دعواها مناسبة لموضوعهـا مثيرة للذكريات منشطة للعزائم ، يقول فيها الشاعر القديم :

فنحن الناس كل النـاس ... فى البـر وفى البحـر
أخـذنا جـزية الخلق ... مـن الصـين الى مصر
الى طنجة بل فى كـل ... أرض خيلنـا تسرى
وان ضـاق بنا قطـر ... نزل عنـه الى قطـر
لنا الدنيا بمـا فيهـا ... من الاسـلام والـكفر
فنصطاف عـلى الثـلج ... ونشـتو بلد التمـر

هكذا كانت حضارة الاسلام وعزته واتساع رقعته ، وهكذا ينبغى أن تعود سيرتها الأولى فى القوة والمتعة والرقى الفكرى ، وانها لصانعة بالإذن الله ! كما توحى بذلك بشائر النهضات القومية الحاضرة فى أمم الشرق العربى والاسلامى • ولعل مما له دلالته ومغزاه أن تلك الأمم – وفى طليعتها مصر الحرة الثائرة ، التى أتم الله عليها نعمة الحرية والكرامة ، فأجلى عن أرضها آخر جندى من جنود الاحتلال الأجنبى ، قد أخذ قادتها ومفكروها أنفسهم بمبدأ الرحلة طلبا لتواصل أخوى ، أو مشاورة سياسية ، أو تعاون اقتصادى ، أو رغبة فى دراسة أحوال الأمم الشقيقة ، والكشف عن ألاعيب الاستعمار ودسائسه ومظالمه • فيوما بباندونج ، ويوما بالصين أو الهندأو باكستان ، ويومابصنعاء أو مكة أو دمشق أوعمان ويوما على ساحل المغرب العربى ، أو فى صحاريه الواسعة المترامية الأطراف • ومع كل رحلة من هذه الرحلات تزداد رابطة الأممالشرقية توثقا وسياستها الحرة المستقلة تحددا ووضوحا ،•ووعيها القومىيقظة وإيمانا بنفسه •

كتب السياسة وأصول الحكم

فى بهجة هذه الايام الخالدة من تاريخ مصر السياسى والدستورى وفى نشـــوة الاجتماع الشعبى الرائع الذى تجلى فى آنتخـــاب بطل الجلاء رئيسا لجمهورية مصر نعاود جولتنا فى أركان المكتبة العربية لنستعرض الكتب والبحوث والرســـائل التى كتبت فى السياسة وظواهر الحكم ، ولتبين مكانها فى تاريخ الحياة الاسلامية خاصة ، وتطور الحضـــارة البشرية عامة ، ولتكشف عن القسمات والملامح الاسلامية الاصيلة فى تفكيرنا السياسى الحديث .

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن أول ما يتجه الى القانون السماوى ، الذى أنزله الله على رسوله فى صورة كتاب عربى مبين ، يرسى قواعد الحياة الانسانية الفاضلة ، ويقرر مبادىء العدل فى الحكم ، والشورى فى الامور ، والمساواة بين الناس . ثم يتتبع الذهن تطبيق هـــذه المبادىء الكبرى فى أقوال الرسول وأفعاله ومواثيقه ، ورسائله الى رؤساء الامم المجاورة ، وفى خطاب الخلفـــاء الراشدين ووصاياهم لقواد الجيوش ، وعهودهم الى العمال والقضاة فى الاقاليم .

وقد أحسن أحد الباحثين الهنود صنعا اذ حقق مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة ، وجمعها فى كتاب بهذا الاسم ، نشر فى مصر منذ خمس عشرة ســنة ، وهـــو يبـــدأ المرحلة النبوية بالميثاق الذى عقده الرسول بين طبقات السكان فى المدينة ، عقب وصوله اليها مهاجرا ، ويختمها بخطبة حجة الوداع ، التى بين الرسول فيها حقوق المسلمين وفرائضهم الاساسية . ويشير

المنصف فى مقدمة كتابه الى أن « قريش » مكة لم يـــكن لهم قبـــل الاسلام تجربة واسعة لسياسة المدن . فلما جاء الاسلام اجتمعت القوى المنتشرة فى جزيرة العرب على مركز واحد ، وتشـــكلت فى دولة ذات نظام وادارات منضبطة ، وقامت بينها وبين المماليـــك المجاورة والمفتوحة علاقات سياسية . ومن هنا دعت الحـــال الى وثائق تعبر عن تلك العلاقات ، وقد عنى الباحثـــون من الغربيين والشرقيين بهذه الوثائق ، ودرسوها ، وترجموا كثيرا منها الى اللغات الاوربية ، وأبرزوا ما كشفت عنه من عبقرية الرسول فى سياسة الناس ، وفى بناء الدولة الجديدة . أما خطب الخلفاء الراشدين فقد حفظت لنا صورة حية من ديمقراطية الاسلام ، ومن شـــعور الراعى المسلم بمسئوليات منصبه ، وقيامه على شئون الرعية قياما يرضى عنه الله ، وتزكيه المبادىء والمثل الصالحة .

وفى كتاب « نهج البلاغة » الذى ينسب كله أو جله الى « الامام على » نماذج خالدة من الخطب الاسلامية ، التى تؤلف كتابا ضخما فى أدب الحكم الصالح . وقد أشرنا وأشار الباحثون الى أمثلة منه فى أحاديث سابقة . ونضيف هنا فقرات من احدى تلك الخطب ، يقرر فيها « الامام على » حدود الصلة بين الوالى والرعية فيقول :

ثم جعل ــ سبحانه ــ من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها تتكافأ فى وجوهها ، ويوجب بعضها بعضا . وأعظم ما افترض ــ سبحانه ــ من تلك الحقوق ــ حق الوالى على الرعية ، وحق الرعية على الوالى ، فريضة فرضها الله ــ سبحانه ــ لكل عـــلى كل ، فجعلها نظاما لألفتهم وعزا لدينهم ، فليست تصلح الرعية الا بصلاح الولاة ، ولا يصلح الولاة الا باستقامة الرعية . فاذا أدت الرعية الى الوالى حقه ، وأدى الوالى اليها حقها ، عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل وجرت على اذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع فى بقاء الدولة ويئست مطامع الاعداء

.. واذا غلبت الرعية وواليها ، أو أحجف الوالى برعيته ، اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الادغال فى الدين ، وتركت محاج السنن ، فعمل بالهوى ، وعطلت الاحكام وكثرت علل النفوس .

ثم يقول الامام :

فلا تكلمونى بما تكلم به الجبابرة ولا تتحفظوا منى بما يتحفظ به عند أهل البادرة ، ولا تخالطونى بالمصانعة ، ولا تظنوا بى استثقال فى حق قيل لى ، ولا التماس اعظام لنفسى ، فانه من استثقل الحق ان يقال له أو العدل ان يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه . فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل ..

مثل هذا الأدب السياسى كثير فى تراث العصر الذهبى من تاريخ الاسلام ، تلقاه منبثا فى خطب الخلفاء والولاة ، ورسائل الكتاب والبلغاء ، ومباحث الفلاسفة وعلماء الفقه والتشريع ، كما تلقاه فى كتب خاصة ، عالج فيها مؤلفوها أساليب السياسة وتطور الفكر السياسى فى الاسلام . فمن العلماء الذين عنوا بهذا الميدان فى كتبهم « أبو الحسن الماوردى » المتوفى سنة ٤٥٠ هـ . فقد خصص لبحث الامامة والخلافة والوزارة والقضاء وما اليها من المناصب كتابا عنوانه « الاحكام السلطانية » . كما بحث جوانب من هذا الميدان فى كتابه « ادب الدنيا والدين » . وهو كتاب مشهور بين كتب الثقافة والأدب الاسلامى ، تهمنا منه هنا فكرة مؤلفه عما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمة ، وأمورها ملتئمة . وذلك عنده ينحصر فى ستة أشياء رئيسية ، تتفرع عنها بقية أبوابها ، وهى : دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح ، فأما الدين المتبع فانه يصرف النفوس عن شهواتها ، اذ يصير زاجرا للضمائر ، رقيبا على النفوس . وأما

السلطان فوجوده ضرورى لنظام العمران ، ووظيفته فى الأمة حماية الوطن من أعدائه ، وعمارة البلدان ، والتصرف فى الاموال العامة على مقتضى السنة المشروعة ، والقضاء على المظالم والاحكام بالتسوية بين أهلها ، واختيار الخلفاء والعمال من أهل الكفاية والامانة • فاذا قام السلطان او الراعى بهذه الوظائف فى الأمة ، كان مؤديا لحق الله تعالى فيها ، مستوجبا لطاعتها ومناصحتها ، مستحقا لصدق ميلهـا ومحبتها ، وان قصر عنها ولم يقم بحقها وواجبها كان بها مؤاخذا وكان عرضة للمعصية والمقت من الناس يتربصون الفرص لاظهارها ويتوقعون الدوائر لاعلانها ، وأما العـدل الشامل فانه يدعو الى الألفة ، ويبعث على الطاعة ، وتعمر به البلاد ، وتنمى الاموال ، ويأمن السلطان ، فقد قال المرزبان لعمر بن الخطاب حين رآه ــ وقد نام متبذلا ــ عدلت فأمنت فنمت ! والعدل عدلان : عدل الانسان فى نفسه ثم عدله فى غيره • وأما الامن فبه تطمئن النفوس ، وتنتشر الهمم ، ويأنس الضعيف ، ويفر الخائف ، وأما الخصب فانه يقوى رابطة الود والتواصل ، ويخفف من حدة الحسد بين الناس • وأما الأمل الفسيح فهو نعمة من الله ، تدفع على العمل والتعمير والاصلاح ، اذ لولا الأمل ما تجاوز الواحد حاجة يومه ، ولا تعدى ضرورة وقته •

هذه هى الاركان الرئيسية لفكرة عالم من علماء القرن الخامس الهجرى عن الحياة الانسانية المنظمة ، والمجتمع الاسلامى السليم •

فاذا انتقلنا الى القرن السابع ، وجدنا العالم المصلح الجرىء « تقى الدين ابن تيميـة » يؤلف كتابا عنوانه « السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعية » ، يوضح فيه الفكرة الاسلامية فى السياسة العادلة والولاية الصالحة ، بانيا تلك الفـكرة على قـواعد أسـاسـية تضمنتها الآيتان الكريمتان : (ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعا بصيرا ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا

الرســـول وأولى الأمر منكم ، فان تنــازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليـــوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ..

فالآية الاولى تأمر ولاة الامور ان يؤدوا الامانات الى أهلها ، واذا حكموا بين الناس ان يحكموا بالعدل . والآية الثانية تلزم الرعية ان تطيع أولى الامر – القائمين بما أمرهم الله به – فى قسمهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك ، الا أن يأمروا بمعصيته ، فانه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقد طبق « ابن تيمية » هذه القواعد فى مجال السياسة العملية وبين كيف يؤدى كل من الراعى والرعية الأمانة كما يجب ، واقتبس من الآيات والاحاديث والسنة ما يكشف عن أسرار المبادىء الاسلامية فى نواحى الحكم : من اختياره الولاة والعمال ، وجبـــاية الاموال وصرفها ، ورعاية الحقوق ، وتنظيم الجهاد ، والاخذ بمبدأ الشورى ، وما الى ذلك من ضروب التنظيم للحياة العامة .

ولعلمائنا وباحثينا المعاصرين دراسات فى هذا الميـــدان الذى ازدادت العناية به فى تاريخنا الحديث .

وقد قام أحد هؤلاء بدراسة النظريات السياسة الاسلامية ، ونشر نتيجة دراساته فى كتاب بهذا الاسم ، أرخ فيه لنشأة تلك النظريات ، وحلل التصورات السياسية التى كشفت عنها الكتابات الاسلامية ، وناقش الموقف بين الأمة والحاكم من وجهة النظـــر الاســـلامية مناقشة موفقة .

هذه الكتب التى أشرنا اليها قليل من كثير مما تحفل به المكتبة العربية ، من البحوث والكتابات السياسية . وهى تشهد بعناية المسلمين بهذه الناحية من التأليف فى تاريخهم الثقافى ، وتكشـف

عن بعض جهود الاسلام فى تنظيم الحياتين السياسية والاجتماعية ، وتدل على أن وراء نهضتنا الحاضرة معينا من التعاليم الروحية الصحية تنهل منه وأن دستورنا الذى أقررناه ، ورئيسنا الذى انتخبناه فى استفتاء شعبى عام ، انما هما نتاج قوميتنا المعتزة بتراث ماضيها ، المؤمنة بعظمة حاضرها ، الواثقة بعد الله فى جلال مستقبلها وحكمة قادتها واخلاص مواطنيها ، وسلامة نظمها السياسة الجديدة .

وحين تجيىء مرحلة التسجيل التاريخى لامجاد نهضتنا الحاضرة، فسيكون لمكتبتها السياسية مكان الصفحات الاولى من ذلك السجل ، وستضم تلك المكتبة فيما تضم دستور الثورة ، وما قرره من قواعد العدالة والشورى والديمقراطية ، وسلطة الشعب ، ومكان الحاكم من النظام القومى ، والقيم العليا التى توجه نظمنا وتشريعاتنا فى حياتنا المستقلة الكريمة . وستضم الى جانب ذلك ما كتبه الباحثون على الدستور الجديد من تفسيرات وشروح ، وما قرره زعماء الحرية المصرية فى كتبهم وخطبهم وأحاديثهم عن فلسفة الثورة وأهدافها ، والحكم الصحيح ومبادئه ، والديمقراطية المثمرة وأوضاعها ، وتكافؤ الفرص لجميع المواطنين ، ومكان الدين والاخلاق فى هذا ، ونصيب مصر الحرة المستقلة فى توجيه السياسة الدولية وخدمة السلام العالمى ..

من أعلام الإسلام

الامام البخارى

في صيف عام ١٩٤٨ انعقد المؤتمر الدولى الحـادى والعشرون للمستشرقين ، بمدينة باريس ، وحضرته فيمن حضره من الاساتذة المصريين لتمثيل مصر وجامعاتها فى المؤتمر ٠

وكان من البحوث التى استمعنا لها هناك بحث القاه عالم مستشرق ممن يهتمون بالدراسات الاسلامية ، موضوعه « نظـرة جديدة فى تقدير الحديث والسنة النبـوية » ، وفكرته الاساسـية أن العلماء المسلمين السـابقين الذين عنوا بجمع الحديث وروايتـه قد أهملوا دراسة المجتمع الاسلامى الاول ، وما خضع له من العوامل التى أدت الى وضـع الاحاديث والكذب فى روايتها ، ولهذا جاء عملهم غـير دقيق ، ووجب على الباحث الحديث أن يعيد دراسة الموضوع ، ويتخذ للصحة وعـدمها مقاييس جديدة ٠ وقد انبرى له اذ ذاك طائفة من الاسـاتذة المصريين الحاضرين فبينوا خطأ فكرته ، وعـدم انصافه للمجهود العلمى الضخم الذى قام به علماء الحديث من المسلمين ، وعلى الأخص فى القرن الثالث الهجرى ، وهو القرن الذى عاش فيـه الشيخان البخارى ومسلم ، وبقية مؤلفى الكتب الستة ٠

ان المؤرخ المنصف لا يسعه الا الاعجاب بجهـود اولئك العلماء الذين اختطوا لأنفسهم فى ذلك الزمن القـديم منهجا علميا فى جمع الحديث وروايته ، فراضوا أنفسهم على مشاق الاسفار طلبا للحديث ، وتوفروا السـنين الطوال على التحقيق التاريخى ، ووضعوا أمامهم مقاييس جديرة بالاعتبار ساروا عليها فى تقدير رواة الأحاديث ٠

والحق أنهم بذلك قدموا للاسلام وللعلوم الاسلامية يدا مشكورة وحفظوا للمسلمين المصدر الثانى الرئيسى من مصادر التشريع بعد كتاب الله ٠

كان المسلمون فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون لكل ما ينطق به بقلوب واعية وآذان صاغية ، ويلتزمون الدقة والحيطة فى رواية احاديثه فى مناسباتها الضرورية ، ويأخذون بتلابيب من لم يطمئنوا لحفظه ، ولم يعرف عنه ــ صلوات الله عليه ــ أنه شجع أصحابه على كتابة حديثه ، بل ورد فى بعض الاحاديث أنه نهاهم أن يكتبوا عنه غير القرآن ٠ فلما اختاره الله لجواره ، واتسعت رقعة الاسلام ، وكثر النقل والرواية ، وتعددت الاحزاب السياسية والمذهبية ، شعر السلف الصالحون ان الوضع قد تسرب الى الاحاديث النبوية ، وأن الموقف قد أصبح يدعو الى مزيد من العناية فى التثبت من صحة ما يروى ، وتعرف أحوال رواته ــ أو رجال اسناده ــ من الصدق والضبط ، بل لم يلبث أهل الغيرة على مصادر الدين أن شعروا بضرورة جمع السنة فى كتاب ، وكان من أظهر من دعا الى هذا عمر بن عبد العزيز ثم أبو جعفر المنصور ٠ وقد نفذت الفكرة فى القرن الثانى الهجرى فى نطاق محلى على يد جماعة من العلماء أشهرهم الامام مالك بن أنس صاحب « الموطأ » ٠

فلما جاء القرن الثالث الهجرى خطت هذه الحركة خطوات أوسع وأعمق أثرا ، فألفت مجموعات الكتب التى اشتهرت بالكتب الستة ، والتى كانت ولا تزال عماد الدارسين للحديث والسنة ٠ وخير هذه المجموعات وأدقها اثنان عرفا بالصحيحين ، وانى مقدم اليكم جامع أحد الصحيحين ومن أقر له الجمهور بالسبق والفضل ، ومن جمع فى صحيحه أكثر من سبعة آلاف من صحاح الحديث ، ومن طوف فى البلاد الاسلامية ستة عشر عاما فى سبيل هذه المهمة وهو الامام البخارى ٠

ولد أبو عبد الله محمد بن اسماعيل فى بخارى من اقليم خراسان سنة ١٩٤ هـ ٠ فى أيام النزاع بين المأمون والأمين ، وتوفى فى سنة ٢٥٦ هـ ٠ وكان أبوه رجل علم ، وورع ، وقد توفى الأب والطفل صغير ، فنشأ يتيما فى حجر والدته ، ولكن الله وهبه من صغره موهبتى الحفظ وقوة الفهم ، ووجهه الى استعمال هاتين الموهبتين فى العناية بحديث رسول الله ، وقد وصف هو مراحل جهاده فى هذه الناحية : فذكر أنه ألهم حفظ الحديث فى المكتب ، وله عشر سنين أو أقل ، ثم خرج من المكتب فجعل يختلف الى علماء الحديث ، ولم يلبث أن تكشفت لهم من حدة ذهنه وقوة حفظه عجائب وآيات ، وما بلغ السادسة عشرة حتى كان قد حفظ كثيرا من كتب السابقين ثم خرج الى مكة مع أهله حاجا ، وأقام يطلب الحديث فيها وفى المدينة على كبار المحدثين ٠ وصنف كتابه التاريخ الكبير ــ وهو ابن ثمان عشرة سنة ــ عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى الليالى المقمرة ، كما يقول ٠

وبعد أن رجع من مكة ارتحل الى سائر مشايخ الحديث فى البلدان التى أمكنته الرحلة اليها ٠ فزار معظم مراكز العلم فى مصر والشام والعراق وأقاليم فارس ٠ وما برح يدأب ويجتهد ، حتى صار ــ كما يقول شارحه القسطلانى المصرى ــ « أنظر أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، والمقدم على أقرانه ، وامتدت اليه الاعين ، وانتشر صيته فى البلدان ، ورحل اليه من كل مكان » ٠

وتروى تراجمه فى هذا روايات ، تبدو فيها أحيانا المبالغة ، ولكنها من الكثرة وتعدد المصادر بحيث يقوى بعضها بعضا : فقد بلغ من سرعة حفظه ــ كما يقولون ــ أنه كان ينظر فى الكتاب نظرة واحدة فيحفظ ما فيه ، وسمع بعضهم بعجائب أخباره ، فخرج فى طلبه ، فلقيه فقال له : أنت الذى تقول : أنا أحفظ سبعين ألف حديث ! فأجابه البخارى الشاب : نعم وأكثر ، ولا أجيبك بحديث

عن الصحابة والتابعين الا من عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين الا ولى فى ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله وسنة رسوله · ويظهر أن شيوع هذه الأخبار عنه أثار فضول الأقران وأغراهم بتعقبه ومحاولة ايقاعه فى الخطأ : ذكروا أنه قدم بغداد فاجتمع أصحاب الحديث ، وعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، ودفعوا الى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخارى فى المجلس امتحانا · فلما اجتمع الناس واطمأن المجلس بأهله قام أحدهم فسأله عن حديث من تلك العشرة : فقال البخارى له أعرفه : فسأله عن آخر فقال له : أعرفه وهكذا حتى فرغ من العشرة ، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم الى بعض ويقولون انه فهم ، وكان من لا يدرى يظن به العجز وعدم الفهم · ثم قام الثانى والثالث ·· الى آخر العشرة · فلما فرغوا التفت هو الى الاول فقال : أما حديثك الاول فقلت كذا وصوابه كذا ، وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا ، حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن الى اسناده ، وكل اسناد الى متنه · وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل · وأثر عن بعضهم أنه قال : جالست الفقهاء والعباد والزهاد ، فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن اسماعيل ، وهو فى زمانه كعمر فى الصحابة ، وقال آخر : رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق فما رأيت فيهم أجمع من محمد بن اسماعيل ، وروى ثالث أنه سمع أكثر من ثلاثين عالما من علماء مصر يقولون : حاجتنا فى الدنيا النظر الى محمد بن اسماعيل · وكتب اليه أهل بغداد كتابا جاء فيه :

المسلمون بخير ما بقيت لهم
وليس بعدك خير حين تفتقد

كان هذا الرجل ـ اذن ـ نابغة فى مواهبه العقلية ، وكان مثلا من أمثلة الصبر والدأب فى طلب العلم والانقطاع اليه · ولكن هناك

جوانب أخرى من عظمته ، لا تقل عن هاتين جلالا ، ضمنت له الخلود على صفحة الزمن : ذلك أنه سلك فى جمع الحديث مسلك التحقيق العلمى التاريخى : فوجه عنايته الى دراسة أحوال الرواة وصفاتهم ، منذ عهد الرسول الى أيامه : يبدو أنه قصر اختيـــاره من بين مئات الالوف من الاحاديث التى جمعها على الاحاديث التى يتوفر فى رواتها مع الاســلام الصدق والضبط والثقة والعدالة ، وســلامة الذهن والاعتقاد ، والخلو من الوهم والاختلاط • وقد رتب هذه الاحاديث الكثيرة التى جمعها فى الجامع الصحيح فى كتب تشـتمل أبوابا فى الايمان والعلم والعبادات والمعاملات والحدود والسيرةوالجهاد والتفسير وأدب الاجتماع • وكان الى جانب مواهبه وســلامة منهجه العلمى نموذجا من نماذج الاسلام فى الحياء والشجاعة والورع والزهد • ومع أن عمله العلمى كان يقتضيه الخوض فى صفات الرواة وفى التجريح والتضعيف ، فان أقصى ما كان يصف به الرجل المتروك أو الساقط أن يقول : « فيه نظر » ، أو « ســكتوا عنه » ، ولا يكاد يقول فلان كذاب !

وكان الى تواضعه أبى النفس حريصا على كرامة العلم : ذكروا انه لما رجع الى « بخارى » نصبت له القباب على فرسـخ من البلد ، واستقبله عامة أهلها ، ونثرت عليه الدراهم والدنانير ، وبقى مدة يحدثهم ، فأرسل اليه أمير البلد نائب الخلافة العباسية يتلطف معــه ويسأله ان يحضر منزله فيقرأ الجامع الصحيح والتاريخ الكبير على أولاده ، فامتنع البخارى من ذلك وقال لرسوله : قل له أنا لا أذل العلم ، ولا أحمله الى أبواب السلاطين ، فان كانت له حاجة الى شىء منه فليحضر الى مسجدى أو دارى •

وقد روى صحيح البخارى من مؤلفه خلق كثـير ، يقدره بعضهم بتســعين ألف رجل ، واعتنى كثـــير من الائمة بشرح الكتاب أو اختصاره أو التعليق عليه ، وأخذ علماء مصر بحظهم من العناية بهذا

الكتاب ـ خلال العصور ـ ومن أشهرهم العينى ، والسيوطى والقسطلانى . وقد ترجم للبخارى من علماء مصر فى العصر الحديث أحمد أمين ونقد منهجه نقدا منصفا فى كتابه « ضحى الاسلام »

وبعد فأولئك هم أعلام الاسلام وأركان نهضته العلمية ، سبقوا الدنيا بحثا وتحقيقا ، وضربوا لها الأمثال فى الجهاد من أجل العلم ، وفى المحافظة على كرامة العلماء ، وخلفوا لمن بعدهم من المسلمين ذخائر من العلم الصحيح جديرة بأن تشد فى طلبها الرحال ، وأن ينهل منها كل مسلم ومسلمة .

أبو بكر الباقلانى

شغلت مسألة الاعجاز ـ حيزا كبيرا من تفكير العلماء المسلمين فى القرون الاولى ، فناقشوها فى حلقات الدروس ، وتناولوها فى مجالسهم ومناظـــراتهم ، وراحوا يعالجونها كل حســب لون ثقافته . ولكن جهودهم فيها ـ الى أواخر القرن الثالث الهجرى ـ لم تترك لنا كتابا علميا ذا خطر ينير جوانب الموضوع .

حتى اذا كان القرن الرابع الهجرى انتدب لهذه المهمة الجليلة شيخ السنة ولسان الامة ، القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى ، مؤلف كتاب (اعجاز القرآن) .

نشأ هذا العالم الجليل فى مدينة البصرة ، والعلوم الاســـلامية والعربية اذ ذاك أعظم ما تكون ازدهارا ، والثقافات أكثــر ما تكون نماذجا وتفاعلا ، ومداوس الفكر أشد ما تكون تناظرا وتصــارعا ، فثقف من فروع هذه الدراسات ما شــاء الله له أن يثقف ، وذاعت شهرته فى البيئات العلمية ، فأخذ الناس يزدحمــون على بابه طلبا للعلم ، وكانت له ـ كما تقول ترجمة حياته ـ حلقة عظيمة فى جامع المنصور ببغداد ، يجلس فيها مجلســـا عاما يحضره علماء المذاهب ورجال الدولة ودعاة النحل المختلفة ، فيسمعون من معارفه العجب العجاب . وقد كان له ـ وهو شاب ـ موقف مظفـــر فى مناظرة المعتزلة فى مجلس عضد الدولة بشيراز وقد أعجب به الملك فدفع اليه ابنه يعلمه مذهب أهل السنة . وفى سنة ٣٧١ هـ . أرســله عضد الدولة الى ملك الروم فى جواب رسالة وردت منه ، فأظهر فى

سفارته حدة ذهن ، وسرعة بديهة ، وقوة عارضة ، أضفت عليه كثيرا من المهابة والاحترام ٠

واذا كنا لا نعلم على التحديد سنة ميلاد هذا العالم الجليل ، فان الرواية قد حفظت لنا تاريخ وفاته ، اذ كانت يوم السبت لسبع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٣ هـ ٠ وقد دفن فى بغداد بجوار قبر الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنهما ٠

أما الكتاب الذى خلفه لنا الباقلانى فى اعجاز القرآن ـ وهو واحد من كتب كثيرة كتبها المؤلف ـ فيقوم على طريقة واضحة يسير المؤلف فيها خطوة بعد خطوة حتى يصل الى الفكرة التى ارتضاها فى وجه الاعجاز ٠ وهو يمهد للموضوع بمقدمة وفصلين قبل أن يبسط القول فى وجوه الاعجاز التى وصل اليها تفكير الباحثين الى أيامه ، وهى ثلاثة :

أولها أن القرآن يتضمن الاخبار عن الغيوب ، وذلك مالا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم اليه ، والثانى ما تضمنه من أخبار الماضى ، على حين كان معلوما من حال النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان أميا لا يكتب ولا يقرأ ، ولم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنباء سيرهم ، والثالث أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه فى البلاغة الى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه ٠

وفى تفصيل هذا الوجه الاخير تظهر براعة الباقلانى ، وسعة اطلاعه ، ومعرفته بمناهج النقد الادبى : فهو يبين لك أولا أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام فنون الادب العربى ، وليس للعرب نتاج أدبى بهذا الطول وعلى هذا القدر ، مشتمل على ما اشتمل عليه القرآن من تصرف بديع وتناسب فى البلاغة ٠ وقد تصرف القرآن فى وجوه القول من قصص ومواعظ واحتجاج وأحكام ووعد ووعيد الى غير ذلك من الوجوه ،

دون أن يكون فى تأليفه تفاوت أو نزول عن المنزلة العليا • ولن تجد لأحد من البلغاء مهما علت منزلته أدبا لا تفاوت فيه ، وما من شاعر فحل خلا شعره من ضعف هنا وتكلف هناك • وكثير من فرسان البيان يجيدون فى ميدان ويقصرون فى آخر ، هذا والقرآن كتاب تشريع جديد يتخير الالفاظ للمعانى المبتكرة والاسباب المستحدثة ، لا ينسج فى شىء من ذاك على منوال سابق ، ولا ينهج نهجا مطروقا • ومما اختص به انك ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير ، فتبدو غرة جميعه ، وواسطة عقده ، وتكسبه روعة فى الاسماع وتأثيرا فى النفوس •

وقد يعيننا على أدراك سر من أسرار اعجاز القرآن أن ندرس الخصائص البلاغية للغة العربية ، فنحن واجدون منها فى القرآن أنماطا تهز وتعجب ، غير أن هذه الخصائص البلاغية وحدها لا تفسر الاعجاز ، فهى ألوان من الفن المكسوب ، يستطيع ذوو الاستعداد التوصل الى الكثير منها بالتدرب والتصنع ، ويظل القرآن فوق ذلك نمطا وحده ، لا تتطاول اليه أعناق الفحول •

هذا الطريق البديعى - اذن - طريق يرشد ويساعد فحسب ، فأما اذا شئت أن تتصل بسبب من أسرار الاعجاز ، فادرس العربية فى أروع أدبها وأدق خصائصها ، وضع أمامك تراث أئمة الخطابة الاسلامية ، وخير ما أنتج الكتاب المبدعون فى تاريخ العربية طوال العصور ، أدرس كل هذا وتذوقه ، وأحط علما بما قال النقاد فيه ، وما ذكروا من محاسنه وعيوبه ، يتضح لك ما بين القرآن وبينه من بون بعيد • ضع أمامك ان شئت معلقة امرىء القيس وأبلغ قصيدة تختارها للبحترى ، وأنقدهما نقد الصيرفى دراهمه ، فستجد فيهما ضعفا واختلافا كثيرا •

فاذا ما فرغت من هذه الرياضة الفنية فأقبل بكل نفسك على القرآن • واسمع قول الله تعالى فيه : « وكذلك أوحينا اليك روحا

من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا .. » وبعد ، فهل لمست العـــزة والجلال فى قوله : « من أمرنا » ، « نهدى به من نشاء من عبادنا » ! وهل رأيت كيف جعله روحا لانه يحيى الخلق ، فله فضل الارواح على الاجساد ! وجعله نورا لانه يضىء ضـــياء الشمس فى الآفاق ، وأمن به على رســـوله النبى الأمى الذى لم يــكن قبل ذلك يدرى ما الكتاب ولا الايمان !

أرأيت كيف تسير الآية فتقول :

« وانك لتهدى الى صراط مســـتقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ألا الى الله تصير الامور » .

وهو ختام يتألف من مقاطع ثلاث : الاولان منها مؤتلفان ، والآخر منفصل ، ولكن شريف النظم قد صيرها جميعا أشد ائتلافا من الكلام المؤتلف ، وألطف انتظاما من الحديث الملائم !

تأمل قوله :

« فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حســـبانا ذلك تقدير العزيز العليم » .

وانظر الى هـــذه الكلمات الاربع التى ألف بينها واحتج بها على ظهور قدرته ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها درة فريدة ، فاذا ألفت ازدادت حسنا ، وزادتك اذا تأملت معرفة وايمانا !

فاذا شئت أن ترى كيف تصرف القـــرآن فى ضرب من ضروب القول ، فتتبع سورة كاملة (كسورة النمل) وانظر كيف يتســـق نظام الكلام ، وكيف يتصل الجزء بما بعده ، وكيف يوحى كل جزء بدليل من أدلة القدرة والجلال ، كل ذلك فى غير تكلف ولا اضطراب .

أجل الرأى فى سورة سورة ، وآية آية ، وفاصلة فاصلة ، وتدبر الخواتم والفواتح ، والبوادى والمقاطع ، ومواضع الفصل والوصل ، ومواضع التنقل والتحول ، ثم اقض ما أنت قاض ·

تدبر بعض سور القصص فى القرآن مثل (الشعراء وطه) وغيرهما · ان بليغا لو تكلف العبارة عن واحدة من تلك القصص بأضعاف كلماتها ، لم يستوف ما استوفته ، ولم يسلم فيما ينظم من ثقل النظم ونفور الطبع ، وتهافت القول ، وقصور الافصاح ، ولم يستطع أن يصل بالقصص مواعظ زاجرة ، وأمثالا سائرة ، وحكما جليلة ، وأدلة على التوحيد بينة ، وكلمات فى التنزيه والتحميد شريفة ·

هذا هو المنهج الذى يرسمه لنا الباقلانى لتذوق جمال القرآن ، وهو فيما يرسم يناقش المسائل مناقشة فاحصة ، ويصور اختلاف مدارس الادب والنقد فى عصره وقبل عصره ، ويسمو فى تحليله الى ادراك كثير مما نعتبره اليوم عناصر أصيلة فى الفن الادبى ·

واذا كان الباحث الحديث مضطرا أن يخالف هذا العالم الجليل فى بعض آرائه وموازناته ، وأن يضيق باسرافه فى تجريح الشعر العربى أحيانا ، فانه يبقى عليه بعد ذلك أن يعترف أن باحثنا القديم قد طرق موضوع الاعجاز على أساس علمى أدبى ، ووصل فى بحثه الى فكرة وطريقة كان لهما أثرهما فيمن تعرضوا بعده للتأليف فى هذا الموضوع ·

أبو هلال العسكرى

من ميادين العلم التى تجلت فيها العبقرية الاسلامية ميدان اعجاز القرآن ، فقد شغل به العلماء منذ بدء النهضة التأليفية فى القرن الثانى الهجرى ، وانتهت جهودهم فيه ـ فى القرنين الرابع والخامس ـ الى طائفة من أصحاب العقول العظيمة ، الذين عالجوا الموضوع معالجة تخصص واستقصاء وتنظيم .

وموضوع حديثنا علم آخر من أعلام القرن الرابع ، عاصر الباقلانى ، وطرق مثله مسألة الاعجاز ، ولكنه نهج فيها نهجا أدبيا نقديا ، فاعتبر القرآن ذروة البيان ، وحاول أن يجعل من نقد الكلام العربى ، وبيان وجوه البلاغة والفصاحة فيه وسيلة لفهم الاعجاز ، ذلك هو أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكرى ، الاديب اللغوى العالم ، مؤلف كتاب « الصناعتين الكتابة والشعر » وطائفة أخرى من الكتب والرسائل فى اللغة والادب وتفسير القرآن .

حدد « أبو هلال فى كتاب « الصناعتين » أهم باعث له على تأليفه ، فقال ما خلاصته : ان أحق العلوم بالتعلم ـ بعد معرفة الله جل ثناؤه ـ علم البلاغة والفصاحة الذى به يعرف اعجاز كتاب الله تعالى ، الهادى الى سبيل الرشد ، والمدلول به على صحة الرسالة . ومن المعلوم ان من أغفل معرفة البلاغة والفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعته ، ورونق الطلاوة وعذوبتها ، وسهولة الكلم وجزالتها ، الى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها ، وانما يعرف اعجازه من

جهة عجز العرب عنه ، وقصورهم عن بلوغ غايته ، وذلك لعمرى نوع من المعرفة لا يليق بالمسلم المثقف • ومادامت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه ، فالعلم الذى يهدى الى معرفة الاعجاز يجب أن يقدم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ، والتصديق بوعده ووعيده ، هذا الى أن فى دراسة البلاغة العربية صقلا للذوق وعونا على الابداع وهاديا الى نقد الكلام ، وقد ألف فيها العلماء من قبل فجاء كلامهم ناقصا وغير منظم ، فرأى أبو هلال أن يعمل كتابه هذا مشتملا على جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده •

كانت أول خطوة فى مهمة المؤلف أن يبين عن حقيقة البلاغة ويشرح وجوهها • وقد أدار الكلام فى هذا حول تعريف بدأ به ، وهو : « أن البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه ، لتمكنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن • ثم نقل شطرا من كلام العلماء والحكماء فى الموضوع ولا سيما علماء الهند ، اذ نقل عن بعضهم قوله : « ان البلاغة وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة » ، وشرح ذلك ممثلا لوضوح الدلالة بقول الله سبحانه (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) ، « فهذه دلالة واضحة على ان الله تعالى قادر على اعادة الخلق ، وهى مستغنية بنفسها عن الزيادة فيها ، لأن الاعادة ليست أصعب فى العقول من الابتداء » ، ثم قال تعالى : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون) ، « فزادها شرحا وقوة ، لأن من يخرج النار من اجزاء الماء ــ وهما ضدان ــ ليس بمنكر عليه أن يعيد ما أفناه » ، ثم قال تعالى : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم !) « فقواها أيضا وزاد فى شرحها

وبلغ بها غاية الايضاح والتوكيد ، لأن اعادة الخلق ليست بأصعب في العقول من خلق السموات والأرض ابتداء » .

على هذا الأساس مضى « أبو هلال » في الأبواب النظرية الأولى من كتابه ، فتناول النواحي التي تميز جيد الكلام من رديئه ، وحلل صنعة الكلام ، وأبان عما يحقق له حسن السبك وجودة الرصف ، ووضح ما يتطلبه البيان العالي من ايجاز أو اطناب ، وما يستعين به في تنويع الأداء من تشبيه أو مجاز ، مستمدا من القرآن ومن بليغ الكلام نثره وشعره ما يجلو به تلك التصورات البيانية .

فاذا تكلم عن الايجاز وجده على أكمل صـــورة في قوله تعالى : (ولكم في القصاص حياة) ، (ومن يتق الله فهو حسبه) ، (ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله) ، (ألا له الخلق والأمر) ، (وله ما سكن في الليل والنهار) .

واذا انتقل الى الاطناب بين أنه محمود في المواعظ خاصة ، ومثل له بقوله تعالى : (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) ، فتكرير ما كرر من الألفاظ هي في غاية حسن الموقع كما يقول أبو هلال . ومن طريف ما يذكره هنا اشارته الى ما لوحظ في أسلوب القرآن من أنه اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحي ، واذا خاطب « بني اسرائيل » أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطا ، فمما خاطب به أهل مكة قوله : (ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ، وذلك قول يعتمد في ادراكه على فطانة المخاطبين وحسن ادراكهم ، وقلما تجد قصة لبني اسرائيل في القرآن الا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة ، لبعد فهمهم كان وتأخر معرفتهم .

ويطيل المؤلف الكلام عن التشبيه ، فيذكر أنه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ، ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه ، وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان ، وللقرآن فى هذا المثل الأعلى ، ففيه : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) ، (والذين يدعون من دون الله لا يستجيبون لهم بشىء الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) ، (مثل الذين أتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) ... وينقل المؤلف فى هذا الباب كثيرا من تشبيهات صاحب كليلة ودمنة ، وطائفة كبيرة من رائق الاشعار .

واذ يفرغ أبو هلال من مهمة تحديد المبادىء العامة لنقد الكلام ، ينتقل الى المهمة الثانية فى كتابه ، وهى تنمية الثروة البديعية التى جمعها « ابن المعتز » فى القرن الثالث فى كتابه « البديع »، وقد أوصل أبو هلال هذه الأنواع الى خمسة وثلاثين ، عقد لكل منها فصلا ، شرح فيه ما هيته ، واستدل له بالنماذج القرآنية والادبية الكثيرة ، وهذه الأبواب تشمل معظم الأساليب التصويرية التى يستعين بها صاحب الفن الأدبى على تصريف الكلام وتحسينه ، وزيادة تأثيره فى النفوس .

بهذا نجح المؤلف فيما قصد اليه من بيان وجوه الجودة والجمال فى الكلام ، وتمثلها على أتم صورها فى القرآن ، وهكذا كسبت دراسات البيان العربى ــ بحافز من اعجاز القرآن ــ كتابا حافلا بالنصوص الجميلة ، وبتمهيد لابأس به فى بحث طبيعة الجمال الأدبى .

وقد أعان المؤلف على هذا النجاح ثقافته الأدبية واللغوية والشرعية الواسعة ، كما يدل على ذلك تنوع جهوده فى التأليف ، ومحاولته أن يسد بكل مؤلف نقصا بدا له فى ناحية من نواحى العلم ، فمنذ لاحظ قلة الكتب التى عنيت ببيان الفروق اللغوية الدقيقة بين المعانى

المتقاربة : كالعلم والمعرفة ، والذكاء والفطنة ، والكذب والافك ، وغيرها ، أنشأ كتابا سماه بذلك الاسم « الفروق اللغوية وأدار الكلام فيه على مايعرض من الفروق فى كتاب الله ، وما يجـــرى فى ألفاظ الفقهاء والمتكلمين وسائر محاورات الناس ، وحين رأى قلة الدواوين التى تجمع فنون الأدب المختار فى نظمه ونثره وأخباره ، جمع منهذا مجموعة حافلة منظمة سماها « ديوان المعانى » وقسمها اثنى عشر بابا تتضمن أحسن ماقيل فى وصف الناس والطبيعة وظواهر الحياة .

واذا كان أبو هلال لم يترك لنا نظرية واضحة فى اعجاز القرآن ، أو بحثا متعمقا فى طبيعة الأدب ، فان فىالدراسات الاسلامية والأدبية التى خلفها تراثا خصبا جديرا بالاحياء والتقدير .

الطبرى شيخ المفسرين

كان القرآن المعين الأول ، الذى استقت منه العبقرية العلميــــة الاسلامية ، فأينعت وأثمرت ، وخلفت على الأجيال تراثا علميا خصبا، يروع بضخامته ، كما يبهر بأصالته •

وقد عرفت فى سلسلة سابقة ، بشطر من هذا التراث الاسلامى ، هو دراسات اعجاز القرآن ، وأريد أن أنقل الحــديث الى ناحيــة أخرى متصلة بهذه ، هى دراسات التفسير ، فأعرف بأهم أعلامها ، وبطرائقهم فى كشف أسرار الكتاب الحكيم •

وسأبدأ سلسلة هؤلاء بشيخهم فى التأليف غير منــازع ، الامام « أبى جعفر » محمد بن جرير الطبرى » ، الذى عاش معظم حياته فى القرن الثالث الهجرى ، وتوفى فى نهاية العقد الأول من القرن الرابع•

هذا العالم الجليل نشأ فى أقليم طبرستان ، ولكنه كغيره من علماء تلك العصور ، يتخذ الرحلة الى عواصم الاسلام وسيلته فى طلب العلم ، وجمع مادته ، ولقاء أكابر العلماء ، والتعرف الى حفظة الذخائر الاسلامية الذين توارثوها بطريق الرواية الشفوية ، والاستيثـــاق من ضبط هؤلاء الرواة وصدقهم •

لهذا تنقل عالمنا بين الرى وبغداد والبصرة والكوفة والشام ومصر ، وحصل من علوم الدين والتاريخ ، والأدب واللغة ، والنحو والفقه ، والرياضة والطب ، ماشاء الله له أن يحصل •

ومن طريف ما يذكر فى شأن رحلته الى مصر أمران ، لهما دلالتهما على موقف مصر من علماء الأقطار الأخرى ، وعنايتها فى ذلك الوقت

بالدراسات العلمية والأدبية : الأول أنه كان بها وقت دخول « الطبرى » اليها عالم فاضل هو « أبو الحسن على بن سراج المصرى »، يقصد الى لقائه كل من دخل الفسطاط من أهم العلم ، فلما وصل « الطبرى » وبان فضله فى العلوم العربية والشرعية المختلفة ، لقيه « ابن سراج » فوجده فاضلافى كل مايذاكر به من العلم ،ويجيبفى كل مايسأله عنه ، حتى سأله عن التسعر فرآه فاضلا بارعا فيه ، فسأله عن شعر « الطرماح » وكان من يقوم به مفقودا فى البلد ، فاذا هو يحفظه ، فسئل أن يمليه حفظا بغريبه ، فأملاهعند بيت المال فى الجامع، والأمر الثانى أن الطبرى وثلاثة من علماء المشرق ـ وكلهم اسمه محمد ـ جمعتهم الرحلة الى مصر ، وحدث أن نفذت مواردهم وضاق بهم الأمر ليلة من الليالى ، وقام أحدهم يصلى لله طلبا للفرج ، واذا رسول من والى مصر يطرق عليهم الباب ، وقد حمل لكل واحد منهم صرة من الوالى فيها خمسون دينارا ، وقال لهم : ان الأمير كان قائلا (أى نائما فى وسط النهار) فرأى فى النوم خيالا أو طيفا يقول له : ان المحامد طووا كشحهم (أى عضهم الجوع) ، فبعث بهذه الصرر ،وهو يقسم عليكم اذا نفذت أن تبعثوا اليه ليزيدكم ٠

كان «الطبرى» على درجة عالية من الذكاء الفطرى الذى يفيئه الله على من يشاء من عباده ، فيتوقد ذهنهم ، وتصفوا قرائحهم ، وتتكشف لهم أسرار المعرفة وهم صغار ، وقد عرف طول حياته بالزهد والورع والخشوع والأمانة ، وكان رجلا ظريفا فى ظاهره ، نظيفا فى باطنه حسن المعاشرة لمجالسيه ، متفقدا لأحوال أصحابه مهذبا فى جميع أحواله ، جميل الأدب فى مأكله وملبسه ، منبسطا مع اخوانه ، وكان والده على درجة من الثراء ، سهلت على الابن طلب العلم ، ويسرت له الرحلة فى سبيله ٠ ولكن هناك عاملا آخر له خطره ، ساعد الطبرى على أن يخلف للتأليف الاسلامى ثروة حافلة من الكتب ،وعلى أن يضع الأساس الأول المنظم لعلم التفسير ، ذلكهوازدهار الدراسات الاسلامية والعربية المختلفة ، منذ أواسط القرن الثانى الهجرى ،

وظهور ثمار ذلك الازدهار فيما أخرج المؤلفون فى القرنين الثـــالث والرابع من مختلف الكتب ، فقددونت سيرة الرسول ، وحفلت بالكثير من الروايات عن أسباب نزول الآيات والسور ، ووجوه تفسيرها أو تأويلها ، كما جمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتضمنت صحاحه أبوابا خاصة بسور القرآن ، وظهـــرت الوان شـــتى من دراسات غريب القرآن ومعانيه ومجازه ، كما ظهرت مجمـــوعات من مختارات الشعر العربى ومؤلفات فى نقد الكلام وأصـــول بيـــانه ، وازدهرت حركة ضبط اللغة فى مفرداتها وفصيحها وقواعد اعرابها ، وزخرت حواضر الاسلام — ولا سيما فى البصرة والكوفة — بمجالس العلم ، حيث تعالج نصوص الأدب ، وتناقش المعانى ، ويدور الحــوار حول مسائل العقيدة ومذاهب اللغة والموازنات الأدبية ٠

كان الجو — اذن — قد تهيأ لظهور علم من أعلام الأمة يجمـــع أشتات الروايات التى رويت عن الرسول فى تفسير القرآن ، ويدون الثروة الضخمة التى أثرت فى هذا عن ترجمان القرآن عبـــد الله ابن عباس ، وغيره من فقهاء الصحابة ، ويقابل بين الروايات المختلفة فى تفسير الآية الواحدة ، ويرجح بعضا منها على بعض ٠ وكان الطبرى هو العالم الأول الذى انتدب لهذه المهمة ، فألف فيهـا موســوعته الكبرى فى التفسير ، وسماها « جامع البيان فى تفسير القرآن » ، وجعلها فى ثلاثين كتابا ، كل كتاب منها يدرس جزءا من أجزاء الفرقان وقد حمل هذا الكتاب مشرقا ومغربا ، وقرأه من كان فى وقته من العلماء وكل فضله وقدمه ٠ وهو وكتابه الكبير فى تاريخ الرسل والأمم والملوك مرجعان حافلان لايستغنى عنهما باحث فى الحضارة الاسلامية ، وقد عنى بهما المستشرقون كثيرا فى العصر الحديث ، وله الى جانبهمـــا مصنفات كثيرة فى القراءات وأحكام شرائع الاسلام ، وآداب القضـــاة ، وأدب النفوس ، وقد ذكر بعض تلاميذه أنهم حسبوا أيام حياته منذ بلغ

الحلم ، الى ن توفي وهو ابن ست وثمانين ، ثم قسموا عليهـــا أوراق مصنفاته ، فصار كل يوم أربع عشرة ورقة ٠

يقدم الطبرى لتفسيره ببيان أن حكمة الله تعالى قد اقتضت ارسال الرسل ، وتأييدهم بالحجج البالغة ، وقد جعلهم الله فيما خصهم به من البراهين مراتب مختلفة ، ورفع نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم درجات فحباه من أقسام كرامته بالقسم الأفضل وابتعثه بالدعوة التامة والرسالة العامة ، وحاطه وعصمه ، حتى أظهر به الدين ، وأنهج به معالم الحق ، مؤيدا بدلالة على الأيام باقية ، يزداد ضياؤها على كر الدهور اشراقا ، واذن فأحق ماصرفت الى علمه العناية ، ماكان لله فى العلم به رضا ، وللعالم به الى سبيل الرشاد هدى ، وان أجمـع ذلك لباغيه كتاب الله الذى لاريب فيه ، لهذه الغاية ألف « الطبرى » كتابه مضمنا اياه ما انتهى اليه من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه الأمـــة واختلافها فيما اختلفت فيه ، مبينا علل كل مذهب من مذاهبهم ، موضحا الصحيح لديه من ذلك ، وقبل أن يشرع في هذه المهمة الكبرى ناقش جملة من المسائل التمهيدية فى الموضوع : فقرر فـــكرته فى الاعجاز البيانى وفى منزلة القرآن من كلام العرب ، وما بينهما من توافق فى الخصائص الأدبية ، وذهب الى أن الألفاظ التى وردت فى القرآن، وهى موجودة بنصها فى لغات أخرى ـ كالحبشية مثلا ـ هى كلمات عربية ، ولا موجب للقول بأن العربية أخذتها من غيرها ، وأورد من النصوص القرآنية ما استدل به على أن آيات القرآن من جهـــة تفسيرها أنواع : فمنها مالا يوصل الى علم تأويله الا ببيان الرســول صلى الله عليه وسلم ، وذلك تأويل جميع مافيه من وجوه أمره ، واجبه وندبه ، وارشاده وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، وما أشبه ذلك من أحكام آيه التى لم يدرك علمهـــا الا ببيان الرسول لأمته ، وهذا وجه لايجوز لأحد القول فيه الا ببيان الرسول له ، بتأويله بنص أو دلالة ٠ والنوع الثانى مالا يعلم تأويله الا

الله الواحد القهار ، وذلك مافيه عن الخبر عن آجال حادثة وأوقات آتية كوقت قيام الساعة والنفخ في الصور وما أشبه ذلك .

والنوع الثالث مايعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذى نزل به القرآن وذلك اقامة اعرابه ومعرفة المسميات بأسمائها والموصوفات بصفاتها، وذلك لا يجهله أحد منهم .

وعلى أساس هذا التقسيم حدد الطبرى موقفه من آيات القرآن : فما كان من متشابه القرآن تركه ، لأن علم ذلك عند الله وحده ، وماكان مما أمر الرسول بتبيينه ، حشد له المؤلف ضروب الروايات بأسانيدها ، مستعينا فى تمييز ذلك بتبحره فى التاريخ وعلم الأسانيد، وماكان يعتمد فى فهمه على فقه اللغة ، والعلم بأساليبها ، شرحه وأورد عليه الشواهد من مأثور كلام العرب .

فهو – مثلا – فى تفسير قول الله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) يورد الروايات المأثورة فى الموضوع ثم يقول : « قال أبو جعفر : أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الدلالة ، الذى لا اعوجاج فيه ، وكذلك هو فى لغة جميع العرب ، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفى .

أمير المؤمنين على صراط ... اذا اعوج الموارد مستقيم

يريد على طريق الحق ، ومنه قول الهذلى أبى ذؤيب :

صبحنا أرضهم بالخيل حتى ... تركناها أدق من الصراط

ومنه قول الراجز : قصته عن نهج الصراط القاسط . والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى ، وفيما ذكرنا غنى عما تركنا ، ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته ، والمعوج باعوجاجه . والذى هو أولى

بتأويل هذه الآية عندى ، أعنى (أهدنا الصراط المستقيم) أن يكون معنيا به : وفقنا للثبات ما أرتضيته ، ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل ، ذلك هو أهدنا الصراط المستقيم ، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء ، فقد وفق للاسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب ، والعمل بما أمر الله به ، والانزجار عما زجره عنه • وقد اختلفت تراجمة القرآن فى المعنى بالصراط المستقيم ، يشمل معانى جميعهم فى ذلك ما اخترنا من التأويل فيه • »

فالعمل الجليل الذى قام به الطبرى ـ اذن ـ هو أنه جمع تلك الثروة الكبيرة من التفسير بالعلم ـ أى بالروايات الواردة عن الرسول وفقهاء الصحابة وبالفهم القائم على ذوق اللغة ومألوف أساليبها ، ودون ذلك فى كتاب جامع ، فزود من بعده بالمادة الضرورية لمن يريد أن يؤلف فى التفسير وفق سنة الدين ، لا على أساس الرأى والاجتهاد الشخصى •

ولم يقتصر مؤلفنا على مجرد جمع المادة وتنظيمها ، ولكنه سلك المسلك العلمى فوازن بين الروايات المأثورة المختلفة ، ورجح منها ما استحق الترجيح ، واستدل له ، ولم يمنعه توقيره للصحابة والتابعين من أن يخطىء رأى بعضهم أحيانا ، اذا وجد جمهرة الروايات الصحيحة على خلافه ، وقل أن يمر فى تفسيره بموطن خلافى ، الا ختمه بالقول الذى يرتضيه فى الموضوع مع التعليل والتوجيه •

لقد كان هذا الكتاب برواياته الدينية والتاريخية ، وشروحه الأدبية اللغوية ، ومسائله النحوية والبيانية ، وما تضمنه من القراءات والأحكام هو الموسوعة العلمية الأولى فى تفسير القرآن وتأويله ، وسنرى مبلغ تأثيره فيمن نتحدث عنهم بعد ذلك من أعلام التفسير •

عبد القاهر الجرجانى

من أعلام الاسلام القريبين فى منهج تفكيرهم من عقليـــة العصر الحاضر ، عالم « عاش فى القرن الخامس الهجرى ـ منذ تسـعمائة سنة ـ وألف فى الدراسات الاسلامية كتبا تنم عن عبقرية وعـلم غزير • ذلك هو عبد القاهر الجرجانى ، أبرع من كتب فى اعجـاز القرآن ، وأول من وضع الأساس لعلوم البلاغة العربية •

والذى يستحق الوقوف طويلا فى حياة هذا المؤلف اهتـداؤه الى كثير من مقتضيات الطريقة العلمية الحديثة ، وادارته البحث الواسع حول

فكرة مركزية واحدة ، ومعالجته لهذه الفكرة معالجة منطقية شاملة ، وأكثر ما يتجلى هذا فى بحثه لموضوع الاعجاز ، وهو موضوع شغله منذ أن كان فتى يافعا يطلب العلم على أساتذته ، ويطيل النظر فيمـا خلف السابقون من كتب ومصنفات •

لم يلبث عبد القاهر طويلا حتى اقتنع أن العلماء قد وقفوا دون الغاية فى هذه الدراسة ، وأنهم لم يعطوها حقها من البسط والتفصيل ، ولم يلتزموا فيها حدود البحث المنظم الوافى • لذلك اتجه هو الى أن يجعل منها علما حقيقيا كأدق مايكون العلم فى تسلسله ونظامه ، وأن يضع لها من الأصول والقواعد مايشارك فيه اللاحق السـابق ، فالقرآن معجزة « محمد » الباقية على وجه الدهر ، ولا يزال البرهان منه لائحا معرضا لكل من أراد العلم به • وقد صحت نظرة عبد القاهر ، وآتت جهوده ثمارها ، وانتفع الباحثون بنتائجه طوال العصور • وتنبـه الامام الشيخ محمد عبده فى مستهل النهضة العلمية الحديثة الى ما فى

كتبه من أصالة وعمق ، فأشار بطبعها ، وشارك فى تصحيحهـــــا والتعليق عليها ، وجعلها محور دروسه لطلاب الأدب والبيان ·

أطال عبد القاهر النظر فى قضيته الاعجاز فاهتدى الى أن عمادهـا نظم القرآن ، وأن هذه هى الفكرة التى حام حولها المؤلفون السابقون ولم يطيلوا الوقوف ، وأن سبيل الوصول اليها معرفة حقيقة البلاغة والفصاحة فى النظم ، وأن الكلام الجليل انما تقوم روعته وبلاغته على مافيه من نظام وترتيب وصياغة وتصوير ، وشأن الكلام فى هـــذا شأن الصناعات والفنون ، فكما تتفاضل الأشياء الحسية فى نظمهـا ونسجها وصياغتها ، ثم يعظم الفضل وتكثر المزية حتى يفوق الشيء نظيره ومحاسنه درجات كثيرة ، كذلك الكلام يفضل بعضه بعضا ، ثم يزداد من الفضل ، ويترقى منزلة بعد منـــزلة ، حتى ينتهى الى حيث تنقطع الأطماع وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوى الأقـدام فى العجز ، وهناك يكون الاعجاز ·

وقبل أن يدخل بنا عبد القاهر فى تفاصيل هذه الدراسة الفنية ، ينبهنا الىضرورة دراسة الشعرالعربى دراسةواضحةاذا أردنا أنندرك بعض أسرار الاعجاز ، ذلك أن الجهة التى قامتبها حجة القرآن هيأنه جاء على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر ، ومحال أن يعرف كونه كذلك الا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، وميدان القوم اذا تجاروا فى الفصاحة والبيان ، وتنازعوا فيهمـــا قصب الرهان ·

اذا أنجزت هذا التمهيد فأقبل ــ اذن ــ على مهمتك الرئيسيــة ، وهى معرفة خصائص الفصاحة والبلاغة فى الكلام · وعبد القـــاهر لايرضى لك هنا مجرد المعرفةوالوصف المجمل ، ولكنه يطالبك أنتفصل القول ، وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الـــــكلام ، وتعدها واحدة واحدة ، وتعرف عللها وأسرارها ، وتكون معرفتـــك

بها مغرفة الصانع الحاذق الذى يعلم كل خيط فى الديباج ، وكل آجرة فى البناء البديع .

على هذا يمضى عبد القاهر فيما قصد اليه من تحليل الكلام البليغ، واظهار أن نظمه يجرى على وفق معانيه فى التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والاثبات والنفى والتنكير والتعريف والايجاز والاطناب والفصل والوصل وما اليها ، ويتتبع كل باب من هذه فى ضروبه وأشكاله، وتنوع بلاغاته ، ويسوق له المثل بعد المثل ، ويقف بين الحين والآخر عند آية من كتاب الله ، فيحللها على هذه الأسس التى وضعها ، ليبين لك أن ما يبهرك من آيات الذكر الحكيم انما مرجعه الى مافى نظام هذه الآيات من فضل ومزية ، والى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، ووضع كل منها وضعها المناسب . خذ مثلا قول الله تعالى فى قصة الطوفان : (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعدا للقوم الظالمين) . ثم أنظر وتدبر وحاول أن تتبين مبعث ما بهرك فى هذه الآية من روعة وجلال ، وان الآية من أولها الى آخرها مجموعة أسرار ووقائق يدركها الحاذقون بعلم المعانى ، تتمثل فى أن نوديت الأرض ، ثم أمرت ، ثم أن كان النداء بيا ، ثم فى اضافة الماء الى الكاف ، دون أن يقال ابلعى الماء ، ثم أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل وغيض الماء ، فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة فى ذوق الاستعمال العربى على أنه لم يغض الا بأمر آمر وقدرة قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : وقضى الأمر ، ثم ذكر ماهو فائدة هذه الأمور ، وهو : استوت على الجودى ثم اضمار السفينة قبل ذكرها ، وذلك شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة قيل فى الخاتمة بقيل فى الفاتحة ، وفى ذلك اتساق طرفى الآية وحسن سبكها .

وهكذا يسير عبد القاهر فى خصائص الكلام البليغ بابا بعد باب ، وكلما قرر وجها من وجوه الفلسفة الذوقية أتبعه بتحليل بعض آيات

القرآن وروائع الأدب العربى تحليلا يكشف عن ذهن لماح وحس دقيق ٠ خذ مثلا - قول الله تعالى (واشتعل الرأس شيبا) وقوله (وفجرنا الأرض عيونا) ولاحظ ماحدث فى كل منهما من استعارة أو تغيير فى أوضاع الألفاظ : فالأصل أن يقال اشتعل شيب الرأس ،وفجرنا عيون الأرض ٠ ولكن أين هذا من ذاك ! ان الآية الأولى أفادت مع لمعان الشيب فى الرأس شموله وانتشاره ، وانه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، حتى لم يبق من السواد شيء ، أو لم يبق منه الا مالا يعتد به ووزان هذا أنك تقول اشتعل البيت نارا ، تريد أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول ، وأنها قد استولت عليه ، وأخذت فى طرفيه ووسطه ، فاذا قلت : اشتعلت النار فى البيت لم يفد ذلك ، بل لم يقتض أكثر من وقوعها فيه ، أو اصابتها جانبا منه ، وكذلك القول فى الآية الثانية ، فأسلوبها يفيد أن الأرض صارت كأنها كلها عيون ، وأن الماء كان يفور من كل مكان فيها ٠

والفصل والوصل من الظواهر الخفية المسالك فى الكلام البليغ ، بل لقد قيل ان البلاغة هى معرفة موضع كل منهما ٠ ولهذا يتعمق عبد القاهر أسرارهما ، ويعرض الآية بعد الآية ، والمثل بعد المثل ، ليدل على أن الجمل المتجاورة لاتوصل أو تفصل اعتباطا ، ولكن لسر يقتضيه سياق النظم البليغ ٠ وكذلك يفعل فى ظاهرة الذكر والحذف ، حتى اذا جلى أسرارها ، عرض عليك قول الله تعالى : (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال : ماخطبكما ؟ قالتا : لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ٠ فسقى لهما ثم تولى الى الظل ، قال : رب انى لما أنزلت الى من خير فقير) ، ثم دعاك الى ملاحظة حسن النظم الكريم فى حذف المفعول فى المواضع الأربعة من الآية ، اذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ،

قالتا لانسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما • ولا يخفى على ذى بصر أن ذكر هذه المفعولات هنا ليس من المهم ولا من المطلوب فى السياق ، وأن رصانة النظم فى أن يؤتى بالفعل مطلقا ، اذ الغرض يتم بأن يعلم أنه حصل من الناس سقى ، ومن المرأتين ذود، وأنهما قالتالا يكون مناسقى حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى بعد ذلك سقى •

وفى التقديم والتأخير بين أجزاء الجملة العربية طرائف وأسرار تدركها اذا تأملت فى مثل قوله تعالى : (قل أغير الله أتخذ وليا ! ان تقديم « غير » مع الاستفهام هنا أفاد معنى جميلا ، كأنه قيل : يكون غير الله بمثابة أ يتخذ وليا ! أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ! أيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ! وهذا المعنى لم يكن ليحصل لو لم يكن النظم على هذه الصورة • ومثاله فى ذلك قوله تعالى : (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون ان كنتم صادقين !)

هذه النظرية العلمية التى قررها عبد القاهر فى « دلائل الاعجاز » وسماها نظرية النظم ، تكملها نظرية أخرى له فى كتابة « أسرار البلاغة » ، خلاصتها أن التأثير هو الهدف الذى يرمى اليه الكلام الجميل ، ومن هنا كانت الاستعارة والمجاز والتشبيه والتمثيل وسائل لتجميل الكلام وحسن تصويره ، ذلك لما لها فى نفس سامعها أو قارئها من توضيح للمعنى المراد ، أو تقوية ، أو تقريب لبعيده ، أو ابراز للمعنى منه فى معرض حسى ، أو احالة للمجهول منه على مألوف معلوم •

فالكلام البليغ الجميل ـ اذن ـ فى رأى عالمنا الناقد ، يجب أن يتحقق فيه شرطان رئيسيان : أن يجرى نظمه وفق مقتضيات المعانى، وأن تكون صياغته جميلة مؤثرة • وهاتان الفكرتان الكبيرتان هما اللتان

أفسدهما البلاغيون المتأخرون في عصور التقليد ، فحولوهما الى فــروع وأبواب شكلية ، ونسوا المنهج العلمي الذى أوحى بهما ، وبعدوا بذلك عن ادراك الأسرار الحقيقية لبلاغة القرآن .

وقد أدرك الفكر الحديث مافي دراسات العصر الاسلامي الذهبي من أصالة وعلم وابتكار ، فأخذ الآن يحيي معالمها ، ويصل تفكيره بهـــا ، ويذكر أعلامها بما يستحقون من اجلال واكبار .

ضـــياء الدين الناقد الاديب

اذا عد أئمة العربية فى دراسات النقد والبيان جاء فى الصـــفوف الأولى منهم ضياء الدين بن الأثير ، الذى ألف مجموعة من الكتب الأدبية النافعة ، اشتهر من بينها كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ٠

وضياء الدين هذا ثالث ثلاثةأعلام ، نمتهمدوحة واحدة ، وأنجبهم أب واحد : أحدهم « مجد الدين » المحدث صاحب كتاب « النهاية فى غريب الحديث والأثر » وثانيهم « عز الدين » صاحب كتابى « الكامل » و « أسد الغابة » ٠

نشأ ضياء الدين كأخويه فى جزيرة ابن عمر قرب الموصل ، ثم تلقى أصول الثقافة العربية الاسلامية ، وأغرم بفن الكتابة ، واتصل من طريقها بخدمة « صلاح الدين » وأولاده ، وعظمت مكانته عنـد « الملك الأفضل » فى دمشق ، ثم عند أخيه « الملك الظاهر غازى » صاحب حلب ، واضطرته ظروف الأحوال السياسية التى اضطربت بعد ذلك ، للهرب إلى مصر ، وفى المرحلة الأخيرة من حياته عاد الى الموصل واتخذها دار اقامة ، وتولى الانشاء لصاحبها ، الى أن توفى حوالى سن الثمانين فى سنة ٦٣٧ هـ ٠

هذه هى الخطوط الرئيسية لحياة هذا الأديب الناقد ، ولكن كثيرا من مقومات هذه الحياة يمكن أن يستخلص من كتب المؤلف : فقد عنى فيها بتسجيل المعلومات النافعة عن دراساته الأولى ومصادر ثقافته

وعن الطريقة التى سار عليها فى تنمية فنه الكتابى ، وجعلها أساسا لمذهبه فى التوجيه والنقد •

حفظ « ابن الأثير » فى شبابه من الأشعار القديمة والحديثة مالا يحصيه كثرة ، ثم اقتصر بعد ذلك على شعر « أبى تمام » و « البحترى » و « المتنبى » فحفظ دواوينهم ، ولازم درسها مدة سنين ، حتى تمكن من صوغ المعانى ، وأصبح له فى توليدها حذق وبراعة •

وتخرج فى النثر على يد « القاضى الفاضل » صاحب الطريقة المعروفة باسمه فى الكتابة ، وأحد أئمة الانشاء فى القرن السادس الهجرى •

أما ثقافته البيانية فقد أقامها على دراسة ناقدة للكتب الغربيةالتى كانت معروفة الى أيامه ، والتى لم يرقه من بينها الا اثنان : كتاب « الموازنة بين الطائيين » للآموى من علماء القرن الرابع الهجرى ، وكتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى من علماء القرن الخامس •

ولكن العامل الأكبر فى أدب ابن الأثير وفنه ودراساته النقدية كان القرآن ، فقد عكف على دراسته طويلا ، وعثر فى غضونه كما يقول على أبواب من البيان لم يتعرض لها السابقون ، وهداه الله من طريقه الى أشياء جديدة ، بلغ بها مرتبة الاجتهاد ، بنى عليها أغلب مباحثة فى كتابه ، وهو يعد القرآن واحدا من ثمانى أدوات لابد لمن ركب الله فيه طبعا قابلا للأدب أن يستعين بها ، فان صاحب هذه الصناعة يستطيع اذا كان حافظا للقرآن الكريم أن يضمن كلامه بالآيات فى أماكنها اللائقة بها ، فيكسبه بذلك فخامة وجزالةورونقا ، ويستطيع اذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة فى تأليف القرآن أن يتخذه بحرا يستخرج منه الدرر والجواهر ، ويودعها مطاوى كلامه ، كما فعل ابن الأثير فيما أنشأه من المكاتبات •

والسبيل الى تسنم الذروة فى فن الكتابة ـ كما رسمها وسار عليها « ابن الأثير » ـ أن يصرف المتأدب همه الى حفظ القرآن وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلب على شعره الاجادة في المعانى والألفاظ ، ثم يأخذ فى الاقتباس من هذه الثلاثة ، فيقوم ويقع ، ويخطىء ويصيب ، ويضل ويهتدى ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، ويعد من يبلغها اماما فى فن الانشاء ، كما يعد « الشافعى » و « أبو حنيفة » وغيرهما من الأئمة المجتهدين فى علم الفقه .

الا أن هذه الطريقة مستوعرة جدا ، لا يستطيعها الا من رزقه الله تعالى لسانا طيعا وخاطرا لماحا ، يقول ابن الأثير : « ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ، فما وجدت أعون الأشياء عليها الا حل آيات القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، وحل الأبيات الشعرية ، وذلك انما يكون بالحفظ والتنقيب عن المعانى ، والاستعانة بها على تنمية الموهبة الطبيعية .

وقد سلك المؤلف فى كل هذا طريق التجربة العملية ، وأورد فى كتابه خلاصة هذه التجربة ونماذج من تطبيقها : فأوصى فى الشعر أن يبتدىء الناشىء فيأخذ قصيدا من القصائد ينثره بيتا بيتا على التوالى ، ولا يستنكف فى الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها ، حتى اذا مرنت نفسه وتدرب خاطره ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع فيكسوه ضروبا من العبارات المختلفة ، وبهذا يحصل لخاطره بمباشرة المعانى لقاح ، فيستنتج منها معانى أخرى ، وبكثرة الادمان تصير له ملكة ، فاذا كتب كتابا أو خطب خطبة ، تدفقت المعانى فى أثناء كلامه ، ، وجاءت ألفاظه حسنة الجلاء ، تكاد ترقص رقصا .

فسبيل المتصدى لهذا الفن أن يأخذ المعنى من الشعر فيجعله مثل « الاكسير » فى صناعة الكيمياء ، ثم يخرج منه ألوانا مختلفة من جوهر وذهب وفضة ٠

أما القرآن فان المتصدى لحل معانيه يحتاج الى كثرة الدرس ، اذ أن مداومة درسه تظهر من معانيه مالم يظهر من قبل ، وقد كانت طريقة « ابن الأثير » فى ذلك أن يأخذ سورة من السور ويتلوها ، وكلما مر به معنى أثبته فى ورقة مفردة ، حتى ينتهى الى آخرها ، ثم يأخذ فى حل تلك المعانى التى أثبتها واحدا بعد واحد ، ولا يقنع بذلك حتى يعاود تلاوة تلك السورة ، ويفعل مثل مافعله أولا ، خذ مثلا « سورة يوسف » ، وانظر كيف استقى منها المؤلف فى مختلف رسائله ، يقول فى واحدة منها :

« وصل كتاب الحضرة السامية أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرها ، وقضى من العلياء وطرها ، وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها » ويقول من أخرى فى ذم بخيل :

« لم أر كمواهب فلان ملأت أملى بطمع وعودها ، وفرغت يدى من نيل جودها ، فلم أحظ الا بلامع سرابها ، وكانت كدم القميص فى كذابها » ويقول من رسالة فى تقلب الأيام : « لقينـــــا أياما ضاحكات وليتها أيام عابسات ، فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » ٠

وقد نهج ابن الأثير مثل هذا النهج مع الأخبار النبوية فجرد منها كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل فى الاستعمال ، ومازال يواظب مطالعتها مدة تزيد على عشر سنين ، فكان ينهى مطالعته فى كل أسبوع مرة ، حتى دار على ناظره وخاطره مايزيد على خمســـائة مرة كما يقول :

وقد أنكر عليه بعض علماء الأدب في عصره ، وقالوا أن طريقته هذه فى حل الأخبار النبوية لا تتيسر الا فى الشىء اليسير من تلك الأخبار ، وعرضوا عليه أمثلة لما يصعب حله والانتفاع به ، ولكنه أعمل فى تلك الأمثلة ذهنه وقلمه ، وبرهن لهم على صحة منهجه •

هذا هو النهج العملى لطريقة ابن الأثير فى الكتابة ، وهذا مقدار تأثير القرآن فى فنه ، ولكن للقرآن تأثيرا آخر كبيرا فى منهجه النقدى ، وفى مقاييسه التى كان يقيس بها جيد الكلام ، وقد ضمن كل أولئك كتابه « المثل السائر » فبحث خصائص الألفاظ والتراكيب والمعانى ، وبين مواضع الحسن وأسرار الجمال فيها ، واتخذ من أساليب القرآن فى هذا نماذجه العليا ، ووجه الأدباء الى الاقتداء بها فى سهولة ألفاظها وسلامتها ، فقال : « واذا نظرنا الى كتاب الله تعالى الذى هو أفصح الكلام وجدناه سهلا سلسا ، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جدا ، هذا وقد أنزل فى زمن العرب العرباء ، وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ وأقربها استعمالا •• وان أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ، وكفى بألفاظ القرآن قدوة فى هذا الباب » •

كان ضياء الدين بن الأثير طرازا فريدا بين الناقدين من أدباء العربية ومؤلفيها ، فقد نحا نحو التجربة ، ودعا فى الكتابة الى طريقة خبرها ، وأورد من انشائه نماذج لطريقته ، وبين فى كتابه كيف يكون القرآن غذاء صالحا لثقافة الأديب العربى ، ومصدرا ملهما لفلسفته الذوقية ، وكل ناحية من هذه النواحى تصلح أن تكون مجالا للبحث الخصب والدراسة المثمرة •

ابناء الأثير

اذا كان لعلماء القرون الهجرية الأولى فضل السبق والابداع فى التأليف ، فى فروع الدراسات الاسلامية ، من قرآن وحديث وتاريخ وغيرها ، فان لعلماء القرون المتوسطة ـ الخامس والسادس والسابع ـ فضل التوسع والتنظيم والاحاطة ، وتصنيف المراجع الواسعة التى منها نهضتنا الحديثة فائدة كبيرة ، اذ أن من عوامل نجاح الباحث فى عمله أن يلم بالتراث السابق فى موضوعه ، وأن يتعرف جهود الأسلاف فيه ، وينقدها بالعين المنصفة الفاحصة ، محاولا أن يخطو بالموضوع خطوات ، يتقدم بها العلم ، ويسير بها ركب الحضارة الى الأمام .

وقد شاركت الأقطار الاسلامية المختلفة فى عملية التوسع والتنظيم هذه ، فأطلعت حواضرها أعلاما شدت اليهم الرحال من الآفاق وعرفنا ببعضهم فيما سبق من هذه الأحاديث .

ونريد أن نستأنف هذا التطواف النافع ، وأن نقف على بعض مراكز الاشعاع العلمي وقفات كلها تبجيل واعجاب ، وأن نقدم طلاب العلم المحدثين الى شيوخهم من علماء الاسلام ، الذين كانوا نماذج فى الاخلاص للعلم والتوفر عليه ، والزهد فى مظاهر الدنيا من جاه أو مال .

فلنشد الرحال ـ اذن ـ الى جزيرة « ابن عمر » قرب الموصل ، ولنختر من مراحل التاريخ نهاية القرن السادس وأوائل السابع الهجرى ، ثم لنستأذن ولنقف فى اجلال أمام بيت من بيوت المعرفة هناك ، أفاض الله عليه الحكمة وعلمه مما يشاء ، وأنبت فيه شجرة طيبة كل فرع فيها يعدل روضة من رياض العلوم والمعارف .

انظر تجد أمامك أخوة ثلاثة ، نشأوا فى حجر الثقافة الاسلامية ، وانتسبوا بأسمائهم اليها : فتسمى أكبرهم « مجـــد الـــدين » والأوسط « عز الدين » والاصغر « ضياء الدين » وكأنما تعاهد الاخوة الثلاثة على أن يشق كل منهم لنفسه طريقا يجلى فيه ، وعلى أن يؤلف فى فرعه مرجعا ينهل منه مريدو العلم طوال العصــور : فأما مجد الدين فقد اختار أن يكون عالم حديث ، وأما عز الدين فقد نحا نحو التاريخ ، وأما ضياء الدين فقد وجد فى دراسات بلاغة القرآن والأدب بغيته وضالته •

ولعلك تذكر أيها الرفيق فى السفر أننا قد استمعنا معا فى زروة سابقة الى « ضياء الدين » يحدثنا فى كتابه « المثل السائر » فيبين لنا كيف يربى الأديب الناشىء على ثقافة أساسها القرآن والحديث ورائع الشعر القديم ، ويدلنا على طريق الاجتهادفىالأدب ، ويكشف لنا بالتحليل العملى عن كثير من أسرار الاعجاز والجمال فى القرآن الكريم •

فنجعل مجلســــنا ــ اذن ــ مع أخــوية المحـــــدث والمــؤرخ ولنتبين اليد الباقية التى أسداها كل منهما الى دراسات الاسلام •

كان « مجد الدين بن الأثير » ــ كما تقول تراجمه ــ عالما فاضــلا وسيدا كاملا ، جمع بين علوم العربية المختلفة ، وألف فيها تآليف نافعة ، ولكن ميدانه الخاص كان الحديث : فقد صنف فيه ــ فيما صنف ــ كتاب « جامع الأصول فى أحاديث الرسول » فى عشرة مجلدات ، وكتاب « النهاية فى غريب الحديث والأثر » فى خمسة مجلدات ،وهو فى هذا الكتاب الأخير يعرض تاريخ التأليف فى غريب الحديث منذ أن خالط العرب غير جنسهم ، وامتزجت الألسن وتداخلت اللغات وألهم الله عز وجل جماعة من أولى المعارف ، فصرفوا الى هذا الشأن طرفا من عنايتهم ، وعملوا على حراسة هذا العلم الشريف من الضياع ، ولم يخل منهم عصر من العصور حتى أيام المؤلف ، ويجدر بالطالب

المتخصص أن يرجع الى مقدمة هذا الكتاب ليتعرف فيهما الى المؤلفين السابقين من أمثال أبن عبيدة وابن سلام وابن قتيبة والخطابى والهروى والزمخشرى وأبى الفرج بن الجوزى ، وليتبين منازعهم فى مؤلفاتهم ، ثم ليرى كيف تطورت هذه الدراسات الى أيام مجد الدين بن الأثير ٠

يقول مؤلفنا : « ولما وقفت على كتابه (أى كتاب ابن الجوزى) المكمل لكتاب الهروى ، وأدركت ما يعترى الباحث فيهما من مشقة ، رأيت أن أجمع مافيهما من غريب الحديث مجردا من غريب القرآن ، وأضيف كل كلمة الى أختها فى بابها تسهيلا لكلفة الطلب ، ثم أدركت مافيهما من قصور ، فتتبعت الكتب الأخرى ، واستقريت ما حضر نى منها ، واستقصيت مطالب المسانين والمجاميع ، وكتب السنن والغرائب قديمها وحديثها ، وكتب اللغة على اختلافها ، وجريت فيه على التقفية على حروف المعجم بالتزام الحرف الأول والثانى من كل كلمة ، واتباعهما بالحرف الثالث ، الا أنى وجدت فى الحديث كلمات كثيرة فى أوائلها حروف زائدة قد بنيت الكلمة عليها حتى صارت كأنها من نفسها ، وكان يلتبس موضعها الأصلى،لاسيما وأكثر طلبته غريب الحديث لايكادون يفرقون بين الأصلى والزائد ، فرأيته أن أثبتها فى باب الحرف الذى فى أولها ٠٠ ونبهت عند ذكراه على زيادته ٠٠ وأنا أسأل من وقف على كتابى هذا ورأى فيه خطأ أو خللا أن يصلحه وينبه عليه ٠٠ حائزا بذلك منى شكرا جميلا ومن الله تعالى أجرا جزيلا » ٠

أرأيت يا صديقى الى هذا الاستقصاء ! ٠٠ ثم أرأيت الى تواضع العلماء كيف يكون ! ٠٠ لقد شهد له أخوه المؤرخ فى كتابه الكامل شهادة حق فقال : « وكان كاتبا مغلقا يضرب به المثل ، ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم ، رحمه الله ورضى عنه ، فلما كان من محاسن

الزمان ، ولعل من يقف على ماذكرته يتهمنى فى قولى ، ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنى مقصر » ..

وقد كان مجد الدين مثالا لما يتبغى أن يكون عليه العالم من جلال واباء وتخرج من ظلم الناس ، روى عنه أخوه أنه حدثه فقال : « ألزمنى نور الدين صاحب الموصل بالوزارة غير مرة وأنا أستعفيه ، حتى غضب منى وأمر بالتوكل بى ، قال فجعلت أبكى ، فبلغه ذلك ، فجاءنى وأنا على تلك الحال فقال لى : أبلغ الأمر الى هذا ماعلمت أن رجلا ممن خلق الله يكره ماكرهت ! .. فقلت : أنا يامولانا رجل كبير ، وقد خدمت العلم عمرى ، واشتهر ذلك عنى فى البلاد بأسرها وأعلم أننى لو اجتهدت فى أقامة العدل بغاية جهدى ماقدرت أؤدى حقه ، ولو ظلم أكار فى ضيعة من أقصى أعمال السلطان لنسب ظلمه الى ، ورجعت أنت وغيرك باللائمة على ، ، والملك لا يستقيم الا بالتسمح فى العسف وأخذ هذا الخلق بالشدة وأنا لا أقدر على ذلك . قال : فأعفاه السلطان من الوزارة .

وبعد ـ أيها الرفيق ـ فالحديث مع مجد الدين يطول ، وفى برنامج رحلتنا هذه أن نستمع ولو قليلا الى الأخ المؤرخ عز الدين ، وأن نتعرف مبلغ جهده فى كتابه « الكامل » وبذلك نكمل فكرتنا عن هؤلاء الاخوة الثلاثة الذين ما أنجبت الليالى بمثلهم فضلا وسياسة ونبلا ورياسة ، كما يقول صاحب معجم الأدباء .

لقد كان عز الدين من صغره محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة مافيها ، مائلا الى المعارف والآداب المودعة فى مطاويها ، فلما تأملها رآها بين مطول ممل أو مختصر مخل فقد ترك الكثير منها العظيم من الحادثات ، وسود الأوراق بصغائر الأمور ، الشرقى منهم قد أخل بذكر الغرب ، والغربى قد أهمل أحوال الشرق ، فكان الطالب اذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج الى مجلدات كثيرة .

هكذا كان الموقف فى التأليف التاريخى كما وجده عز الدين بن الأثير ، لهذا سارع فى تأليف جامع ، وأتى فيه بالحوادث والكائنات متتابعة يتلو بعضها بعضا آلى وقته ،وهو يذكر بالخير والتقـــدير كتاب التاريخ الكبير للطبرى الذى توفى فى أوائل القرن الرابع ، اذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه ، وقد كان صاحبه اماما متقنا حقا جامعا الى العلم صدقا وصحة اعتقاد ، لهذا يعتمدابن الأثيرعليه أولا ، فيأخذمن تراجمه ، وينقل أتم رواياته ، ويضيف اليهامن غيرهاماليس فيها، ثم يتناول غير الطبرى من التواريخ المشهورة فيطالعها ، ويضيف منها الى تاريخ الطبرى ماليس فيه ، ويضع كل شيءمنها موضعه ، الامايتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهلايضيف الى ماذكره الطبرى غير مافيه زيادة بيان أو أسم انسان .

وابن الأثير حريص أن يبين أنه لايعتمد الا على التواريخ التىعرف أصحابها بصدقهم فيما نقلوه ، فهو لايخبط فى ظلماء الليالى ، ولايجمع الحصباء واللآلى ، وقد وجد المؤرخون يذكرون الحادثة الواحـــدة فى سنين ، فجمع هو الحادثة فى موضع واحد وذكر كل شيء منها فى أى شهر أو سنة كانت ، وذكر فى كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها ، فأما الحوادث الصغار فانه أفرد لجميعها ترجمة واحـدة فى آخر كل سنة ، كما ذكر فىآخر كل سنةأيضا من توفى فيهامن مشهورى العلماء والأعيان والفضلاء .

وهو ينعى على جماعةممن يدعون المعرفة والدرايةاحتقارهم التواريخ واعراضهم عنها ، ظنا منهم أن غاية فائدتها انما هو القصص والأخبار والحقيقة أن للتواريخ ــ كما يقول ــ فوائد دينوية وأخروية : منها أن الشخص اذا طالع أخبار الماضين فكأنهعاصرهم ، ومنها أن أولى الأمر والنهى اذا وقفوا على مافيها من سيرة أهلالجور والعدوان ورأوهامدونة فى الكتب يتناقلها الناس استقبحوها وأعرضوا عنها ، واذا رأوا سيرة العادلين استحسنوها ورغبوا فيها ، ومنها مايحصل للانســـــان من

التجارب والمعرفة بالحوادث ، ومنها مايتجمل به الانسان فى المجالس والمحافل ، ومنها أن من تدبر فيها زهد فى الدنيا وأعرض عنها وأقبل على التزود للآخرة • ولهذه الحكمة وردت القصص فى القرآن المجيد أن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد •

هذا هو مجمل منهج الكامل فى تاريخه الذى يبتدىء بالخليفة وينتهى الى آخر سنة ٦٢٨ هـ • أى سنتين قبل وفاة المؤلف • وقد عرف المستشرقون مكانة هذا الكتاب فطبعوه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كما طبعوا للمؤلف كذلك كتابه « تاريخ الدولة الأتابكية فى الموصل » مع ترجمة فرنسية • وللمؤلف كتاب آخر معروف هو « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » •

وبعد ياصديقى فهؤلاء هم أبناء الأثير مثل النجوم التى يسرى بها السارى ، فبأيهم اقتديت اهتديت ، وهذه هى كتبهم الخالدة على الزمن تشهد للفكر الاسلامى بالخصب والنماء والبركة ، وتحفزهم الأحفاد ليرودوا مجاهل العلم ، ويضعوا — كما وضع أسلافهم — لبنة فى بناء صرح المعارف الانسانية •

المقرى

اذا ذكرت الحضارة الاسلامية فى الاندلس ذكر معها مؤرخها العالم الأديب أحمد بن محمد المقرى ، الذى نشأ بمدينة «تلمسان» من أعمال المغرب ، فى أواخر القرن العاشر الهجرى ، وازدهرت حياته العلمية فى النصف الأول من القرن الحادى عشر .

هذا العالم المغربى النشأة تربطه بمصر صلات كثيرة : فقد حط رحاله فيها بعد أن حج بيت الله الحرام ، ودرس فى جامعها الأزهر ، واتخذها مركزا لزياراته المتكررة الى الأماكن المقدسة ، وأصهر فيها الى أسرة من أشرافها ، وفيها ألف موسوعته الكبرى فى التاريخ السياسى والثقافى والأدبى للأندلس ، وبها أدركته منيته وفى ثراها دفن سنة ١٠٤١ من الهجرة .

والواقع أن صلة هذا العالم بمصر ليست الا حلقة فى سلسلة الروابط ، والصلات التى أحكمت أواصرها منذ القدم بين مصر وعلماء المغرب ، ومن هذا مايورده المقرى نفسه فى كتابه المشار اليه نقلا عن « ابن خلدون » الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ـ كما هو معروف ـ يقول ابن خلدون :

« « لما رحلت من « تونس » منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين أقمنا فى البحر نحوا من أربعين ليلة . ثم وافينا مرسى الاسكندرية يوم الفطر ، ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت واقتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قلاوون ، وكنا على ترقب ذلك ، لما كان يؤثر بقاصية البلاد من سموه لذلك وتمهيده له ، وأقمت بالاسكندرية

شهرا لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ • فانتقلت الى القاهرة أول ذى القعدة ، فرأيت حضرة الدنيا وبستان العـــالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر وايوان الاسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى أوجه ، وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه » ••• الى أن يقول : « ومازلنا نحدث عن هـــذا البلد وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم بالحديث عنـــه : سألت صاحبنا قاضى الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أباعبدالله المقرى ، فقلت له : كيف هى القاهرة ؟

فقال : من لم يرها لم يعرف عز الاسلام ••

والمقرى الذى يشير اليه « ابن خلدون » هنا هو جد المقـــرى الذى نتحدث عنه الليلة • والحفيد يخصص صفحات من كتابه لجده ، يتحدث فيها عن علمه وكتبه ومن لقيه وأخذ عنه من الشيوخ •

وبعد فقد عاش أحمد المقرى فى حقبة غير ناضرة من حيـــاة الآداب الاسلامية ، اصطلح على تسميتها بالعصر العثمانى • ولكنه خلف للعالم كتابين فريدين فى منزعهما ، عظيمين فى قيمتهما ، يرجع اليهما الآن كل دارس شرقى أو مستشرق ، حين يحاول أن يبحث ناحية من نواحى الحضارة العربية التى أينعت فى أسبانيا من القرن الثامن الى القـــرن الخامس عشر الميلادى •

أما كتاباه هذان ـ وله كتب أخرى غيرهما ـ فهما موسوعتان كبيرتان محور كل منهما شخصية من الشخصيات الخالدة ، التى أنبتها الاسلام فى أسبانيا •

فالكتاب الأول دراسته مطولة للقاضى « عياض » حجة العلم فى المغرب فى القرن السادس الهجرى ، ومؤلف كتاب « الشفا فى تعريف حقوق المصطفى » وغيره من كتب الدين والحديث •

والكتاب الثانى دراسة مستفيضة للوزير العالم الأديب لسان الدين بين الخطيب الذى كان معاصرا وصديقا لابن خلدون ، وكان أحد الأعلام الذين أطلعهم الاسلام قبل أن تغرب شمسه فى الأندلس ٠

حول هاتين الشخصيتين ـ ولا سيما الثانية ـ يرسم المؤلف صورة مكبرة لأسبانيا العربية فى حربها وسلمها ، وسياستها واجتماعها ، وأدبها وعلمها ، ورجالها ومدنها ، منذ بدء الحكم العربى الى نهايته ؛ ملقيا على تلك الصورة أضواء من نصوص الأدب ومراجع التاريخ ، مبرزا فيها أهم ظلال الحياتين الفنية والعقلية ٠

واذا كان الكتابان متشابهين فى منزعهما ـ وكان ثانيهما أوسع أفقا وأكثر نضجا ـ فسوف لانقف طويلا عند الأول ـ وهو «أزهار الرياض» الذى ألفه فى مدينة «فاس» قبل سنة ١٠٢٧ هـ ٠ تحقيقا لرغبة أهله وأصحابه فى وطنه تلمسان ٠

أما الكتاب الثانى ـ وهو « نفح الطيب » ـ فقد ألفه فى مصر استجابة لرجاء أصدقائه والمعجبين به فى الشام بعد أن استمعوا لدروسه فى الجامع الأموى ٠

وقد عنى الغرب الحديث ـ كما عنى الشرق ـ بهذا الكتاب ، فانتدب لنشره فى منتصف القرن الماضى أربعة من كبار المستشرقين فى أوربا ـ منهم « دوزى » صاحب الدراسات المعروفة فى تاريخ المسلمين بأسبانيا ٠ تعاون هؤلاء على تحقيق نص الكتاب ، بعد أن رجعوا الى ما وجدوا من مخطوطاته فى المكتبات الكبرى فى بلادهم ، وألحقوا به الفهارس المطولة ، وذكروا مؤلفه بالاعجاب ، وأثبتوا له الأصالة والابتكار ٠

يقدم المقرى لكتاب « نفح الطيب » بمقدمة مسهبة طريفة ، يضمنها نبذا عن حياته في المغرب ، وفراقه مهد نشأته ، ويتفنى بموطنه ، ويهفو شوقا الى ربوعه وملاعبه ، ويقول مع القائل :

أيامنا بالحمى ماكان أحلاك   كم بت أرعاه أجلالا وأرعاك
لاتنكرى وقفتي ذلا بمغناك   يادار لولا أحبائي ولولاك

لما وقفت وقوف الهائم الباكى

ثم يصف رحلته الى مصر والشرق ومالاقاه في السفر من أهوال : فمن جبال تصفر ، الى رياح تدوى وتزفر ، الى موج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، ويبتعد ويقترب ، كأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، حتى وصل صاحبنا ــ بعد خوض بحار يدهش فيها الفكر ويحار ــ الى مصر المحروسة ، فشفى برؤيتها من الأوجاع ، وشاهد كثيرا من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع ، وتذكرماقال الشعراء فى نيلها ومقياسها، وأنسهاوأناسها .

وبعد الاقامة بمصر مدة قليلة ، شمر المقرى عن ساعد العزم الى المهم الأعظم ، وهو رؤية الحرمين الشريفين ، فسافر فى البحر الى الحجاز ، وحين وقع بصره على البيت الشريف كاد يغيب عن الوجود ، واستشعر قول العارف الشبلى لما وفد الى حضرة الجود :

قلت للقلب اذ تراءى لعينى   رسم دار لهم فهاج أشتياقى
هذه دارهم ، وأنت محب   مااحتباس الدموع فى الآفاق
والمغانى للصب فيها معانى   فهى تدعى مصارع العشاق
حل عقد الدموع وأحلل رباها   وأهجر الصبر وأرع حق الفراق

ثم أكمل العمرة وأدى شعائر الحج ، وزار « طيبة » الشريفة ، وحمد الله على أن من عليه بالحلول فى المشاهد التى قام بها الدين وظهر

الحق ، وهزم الله تعالى حزب الشيطان ، وفى أوائل سنة ١٠٢٩ عاد الى مصر ، وفي شهر ربيع من ذلك العام زار بيت المقدس ، ثم رجـــع الى القاهرة ، وكرر منها الذهاب الى البقاع الطاهرة ، وأملى فى مكة دروسا عديدة وألف بحضرة الرسول فى المدينة • ثم آب الى مصر مفوضا لله جميع الأمور ، ملازما خدمة العلم بالأزهر المعمور • وفى شعبان من سنة ١٠٣٧ رحل الى دمشق الشام ، ذات الحسن والبهاء والحيـــاد والاحتشام ، حيث الأدواح المتنوعة والأرواح المتضوعة وحيث الروض وضاح الثنايا أنيق الحسن مصقول الأويم •

وقد انجذبت نفس المقرى الى أهل الشام لما غمروه به من حفاوتهم واعجابهم ، وكثيرا ماكانوا أثناء مقامه يجاذبونه أطراف الحـــديث عن البلاد الأندلسية ، ووصف رياضها السندسية ، فصار يورد من بدائع بلغائها مايجرى على لسانه ، ويسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب ما تثيره المناسبة ، وهكذا نبتت فكرة تأليفه كتاب «نفح الطيب من غض الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب» فلما رجع الى مصر واستقر بها بدأ معالجة موضوعه ، مستعينا فى ذلك بتذكر ماكان قد عنى به فى شبابه من أبناء الأندلس وأخبار أهلهـا ومالهم من السبق فى ميدان العلوم ، والبلاء فى جهاد العدو الظلوم •

ولو أتيح له أن يستحضر معه مقيداته من أيام الشباب ، لبلغ ـ كما يقول ـ الغاية فى هذا الباب • وهو حريص أن يذكر أن جمعه هـــذا التأليف لم يكن رفد يستهديه ، ولا غرض يستجديه ، بل لحق ود يؤديه وتلبية داع يحييه ويغذيه • •

قسم المؤلف كتابه قسمين كبيرين : أحـــــدهما وصف جزيرة الأندلس ، وحسن هوائها ، ووفور خيراتها ، وتاريخها السابق عـــلى الفتح العربى ، ثم ماكان للاسلام بها من مجد وســـلطان ، وماكان لقرطبة عاصمة الخلافة بها من بهاء وجلال ، ثم التعريف بثلاثمـائة أو

أكثر ممن رحل من الأندلسيين الى المشرق ، وبحوالى سبعين من المستشرقين الذين وفدوا على الأندلس ، وما من الله تعالى به على أهل تلك البلاد من توقد الأذهان ، وصفاء القرائح ، وتنوع الانتاج العلمى والأدبى ، ووصف ماكان من تغلب العدو الكافر على الجزيرة بعد أن نجح فى الكيد لها ، والتفريق بين سلوكها ورؤسائها . ولم يخل المؤلف بابا فى هذا القسم من كلام للسان الدين وان قل .

أما القسم الثانى فقد خصص للتعريف بابن الخطيب وآثاره الأدبية والعلمية ، فصاحب لسان الدين منذ نشأته ، وفى اقبال الأيام وادبارها ، وعرف بشيوخه وتلاميذه وأبنائه ، عاقدا لكل ناحية من هذه بابا خاصا .

هذا هو نظام موسوعة المقرى التى أعيد نشرها حديثا فى مصر فى عشرة مجلدات كبار ، يقع الواحد منها فى أربعمائة صفحة ، وتنتظم فى ثناياها أسماء المئات من الكتب المعروفة الآن وغير المعروفة ، وعشرات الآلاف من أبيات الشعر ، وتسجل مظاهر الحياة الأندلسية ، ونظام الادارة والحكم فيها ، وأخلاق السكان وعاداتهم ، ونبذا من ملحهم وفكاهاتهم ، وطرائف عن الشواعر والأديبات من نسائهم ، وأشارت الى ما ألف مؤلفوهم فى مختلف فروع العلم ، ومختارات من مطولات قصائدهم ورسائلهم ، ومستحدثات أزجالهم وموشحاتهم ، وما كان يدور فى مجالسهم من معارضات ومساجلات ، وماكانوا يثيرونه أحيانا من مناظرات حول المفاضلة بين المشرق والمغرب .

هذا المعين الفياض من المعلومات ذخيرة لاتنفد للمؤرخ والأديب والناقد وعالم دراسات الانسان . وقد بدأ بعض كتابنا المعاصرين يتخذون من مادته أساسا لقصص تاريخى حديث عن حياة بعض أدباء الأندلس كابن زيدون والمعتمد بن عباد . وهو من بعض نواحيه — ولا سيما مايورده من الغزل والخمريات — يشبه كتاب الأغانى فى

التأليف المشرقى ، وفيه ثروة من أدب الوصف الذى برع فيه الأندلسيون براعة جعلت لفنهم طابعا يفرقه من فن المشرق . وفي بعض مادة الكتاب طرائف في السياسة والاجتماع ، كالذى يذكره عن نظام الوزارة والقضاء والحسبة ، وكوصف أحوال الناس فى أزيائهم وتدينهم وعددهم فى الحرب ، وتدبيرهم للمعاش وحبهم للعلم ، وجمعهم للكتب وغير ذلك مما عرفت به حياة الأندلس الاسلامية .

فهرس

صفحة

صفحة



الثمن ٧ ص

دار الجمهورية للطباعة